الفصل الأول

الأرشيفات العسكريّة في إسرائيل والإدارة الكولونياليّة

أ. الأرشيفات العسكريّة في إسرائيل- خلفيّة

أُنشئ أرشيف الجيش الإسرائيليّ في تموز ١٩٤٨، أثناء الحرب، وذلك في أعقاب قرار رئيس الحكومة ووزير دفاع دولة إسرائيل وقتها، دافيد بن غوريون، بتجميع التوثيقات التي جرت في وحدات «جيش الدفاع الإسرائيليّ» حديث النّشأة. بعد ذلك بشهور عدّة، وفي يوم ١٩ كانون الأول ١٩٤٨، أرسل بن غوريون توجيهات إلى مدير الأرشيف: «لن يكتفي أرشيف الجيش الإسرائيليّ بتجميع المواد الخاصّة بجيش الدفاع الإسرائيليّ ومن سبقه في البلد (حماية البلدات اليهوديّة من وقت تأسيس بيتح تكفا، «هشومير»، «الفيلق العبريّ»، الهَـجَناه على كلّ فروعها، وغيرها)، بل سيجمع المواد الخاصّة بتأريخ الدفاع الذاتيّ في كلّ مناطق الشتات، إلى جانب مشاركة اليهود في حروب التحرير الوطنيّة والدوليّة، ودور اليهود في تطوير الفنون والتقنيّات العسكريّة».[١٧] ومنذ تأسيسه، يُنقل إلى أرشيف الجيش

---

١٧ http://www.archives.mod.gov.il/about/Pages/odot.aspx

الإسرائيليّ أيّ توثيق كان جُهّز في وحدات الجيش الإسرائيليّ المختلفة: الملفات والأشرطة والأفلام السمعيّة- البصريّة والصور والخرائط والتخطيطات وغيرها. ووفقًا لمضمون توجيهات بن غوريون، فإنّ أرشيف الجيش الإسرائيليّ مسؤول أيضًا عن مجمل المواد الأرشيفيّة المتعلّقة بالجهات والتنظيمات العسكريّة التي نشطت قبل قيام الدولة، ومن ضمنها التنظيمات التي سبقت تأسيس الجيش الإسرائيليّ، ولهذا فإنّ مجمل الأرشيفات العسكريّة تابعة له، مثل أرشيفات الهَـجَناه و«ليحي» و«السِّلماح» و«هَشُومير»، وأرشيف الفيلق العبريّ.[١٨] وبناءً على ما يقوله الأرشيف، فإنّ المعلومات الموجودة في هذه الأرشيفات العسكريّة نتجت «في داخل الأجهزة الأمنيّة» وعلى أيديها،[١٩] ولذلك فإنّ أرشيف الجيش الإسرائيليّ يهيمن على أكبر قاعدة معلومات في دولة إسرائيل، تتعلّق بحفظ وكشف المواضيع المتعلّقة بالجيش في سياقات واسعة.

تعمل الأرشيفات العسكريّة في إسرائيل على حفظ وصيانة أرشيفات الجهات العسكريّة قبل- السياسيّة، ووحدات الجيش الإسرائيليّ المختلفة، والمعلومات المتعلّقة بأداء هذه الأرشيفات. وهي تحفظ، كذلك، المعلومات التي ترد من الناس والجهات الخاصّة في مسائل عسكريّة، وهي بذلك تُخزّن معلومات تاريخيّة وبصريّة وبحثيّة قيّمة حول الجيش الإسرائيليّ. ومع ذلك،

---

١٨ زدْ على ذلك أنّ لوزارة الدفاع وحدة متاحف، تشمل ١١ متحفًا، غايتها «تجسيد حروب شعب إسرائيل على وجوده المستقلّ في بلده، وضمان استمرار الموروث الحربيّ لدى القوات الدفاعيّة والجيش الإسرائيليّ، لنا وللأجيال القادمة».

http://www.mod.gov.il/Memorial_Legacy/museums/Pages/default.aspx

١٩ يُنظر إلى الحاشية رقم ٢ أعلاه.

فإنّ الأرشيفات العسكريّة تحوي أيضًا معلومات قيّمة جدًّا عن الفلسطينيّين في سياق واسع من المواضيع.

نثرت حرب ١٩٤٨ بذور الخراب في الكيان الفلسطينيّ وثقافته، إذ أدّت الحرب إلى اختفاء أو تدمير الكثير من الأرشيفات والمجموعات والمكتبات والكنوز الثقافيّة والتاريخيّة الفلسطينيّة، أو أخذها غنيمة أو نهبها أثناء الحرب. وقد جرى غَنْم أو نهب المواد الفلسطينيّة من جهات فلسطينيّة ومن أفراد قبل حرب ١٩٤٨، أيضًا، كجزء من جمع المعلومات الاستخباراتيّة وكتحضير للمواجهة المستقبليّة. واستمرّ غَنم ونهب الأرشيفات والمجموعات والكنوز التاريخيّة الثقافيّة الفلسطينيّة في الحروب التي تلت حرب ١٩٤٨، أيضًا، وعلى طول القرن العشرين وحتى يومنا هذا. وقد أُخذت هذه المواد من جهات فلسطينيّة وأرشيفات ومعاهد أبحاث وأفراد. وقد نُقل الكثير من هذه الأرشيفات والثروات إلى أرشيفات عسكريّة وهي مُحتجزة هناك حتى يومنا هذا (يُنظر إلى الملحق رقم ١١). المعلومات الواردة في هذا الكتاب تكشف عن بعض هذه المعلومات، تلك المعلومات التي فُتحت لمعاينة الجمهور ورُفع عنها التقييد.

ويتابع الكتاب أيضًا مسألة تطوّر التصوير العسكريّ ومميزاته، إذ إنّه جمع معلومات عن الفلسطينيّين (تحريات، تشغيل مصور مستعرب، نسخ سريّ للمواد، جمع معلومات استخباراتيّة)، ومسألة نشاط الجهات التي هندست وشيّدت المعرفة المتعلّقة بالفلسطينيّين.[٢٠] ويوثّق الكتاب شكل قيام الجهات والأرشيفات العسكريّة، ومن ضمنها أرشيفات التصوير العسكريّة التابعة لها،

---

٢٠ ثمة تماسّ بين هذا وبين نشاط أرشيفات تابعة لأجهزة استخباراتيّة في أرجاء العالم، كما يشير هيو وسكوت (Hughes and Scott 2008,13-14).

بجمع المعلومات أو السيطرة على معلومات فلسطينيّة بوساطة القوة، والسيطرة الجَبريّة على شكل توزيعها وحفظها وتصنيفها وتفسيرها والكشف عنها (الرقابة وتقييد المعاينة) وفقًا للقوانين الإسرائيليّة.[٢١] ولهذا، يخصّص الكتاب مساحة مركزيّة لفحص ما وراء كواليس أرشيف الجيش الإسرائيليّ وأرشيفاته البصريّة الأخرى بتفرّعاتها، والخاضعة لأرشيف الجيش الإسرائيليّ وقوانينه ونُظُمه. وهو يكشف عن مجمل الممارسات القائمة في صلب الأرشيفات العسكريّة في إسرائيل، وكيفيّة الكشف عن المعلومات أمام الجمهور أو الامتناع عن ذلك. ويتفحّص الكتاب المعايير المتّبعة والنُظم الأخلاقيّة لدى أرشيف الجيش الإسرائيليّ، وشكل عمله وأدائه والاستراتيجيّات المركزيّة التي تقف من وراء سياساته والقوانين التي يخضع لها، والتي تؤثر على الكنوز الثقافيّة والمستندات والوثائق التاريخيّة الفلسطينيّة الخاضعة لسيطرته.

ب. الإدارة الكولونياليّة- استعراض تمهيديّ

كما أسلفنا، كانت الغاية الأساسيّة من تأسيس أرشيف الجيش الإسرائيليّ والأرشيفات العسكريّة الأخرى التابعة له، توثيق نشاطات الجهات العسكريّة اليهوديّة والإسرائيليّة. ومع ذلك، فقد تحوّلت إلى مصدر معلومات مهم حول

---

٢١ يتطرّق الكتاب إلى المعرفة البصريّة، إلّا أنّ الاستراتيجيّات الموصوفة فيه تنسحب أيضًا على المجالات الأخرى. مثال ذلك، أنّ ملفات الوكالة اليهوديّة في الأرشيف الصهيونيّ المركزي تحوي كذلك وثائق تابعة لجهات نشطت في جمع المعلومات الاستخباراتية التي تتعلق بمواد عن الفلسطينيين في الهَجَناه. وفي هذه الملفات، مثلًا، نسخ عن وثائق من مكاتب المفتي الحاج أمين الحسيني (S25/22103) ومن سكرتارية الجامعة العربيّة بين السنوات ١٩٤٥-١٩٤٦ (S25/22099). فُتح هذان الملفان لمعاينة الجمهور عام ١٩٩٧.

الفلسطينيّين، وهي تحوي أرشيفات وموادّ معرفيّة فلسطينيّة كثيرة، أو أنّها ذات أهميّة للتاريخ الفلسطينيّ. ورغم أنّ القسم الكبير من هذه المواد لم يُنتج «في المنظومات الأمنيّة» الإسرائيليّة بل تحصّلت جراء الغنم والنهب،[٢٢] إلّا أنّها تخضع لقوانين دولة إسرائيل، ومن ضمنها قوانين الرقابة وتقييد المعاينة والكشف. وهي تخضع أيضًا لسياسات الأرشيف، التي تحوي معايير ونُظم إطلاع ومعاينة متشدّدة، تطوّرت مع الوقت بشكل مستقلّ تمامًا وسنأتي على هذه النقطة لاحقًا (يُنظر أيضًا إلى Sela 2017). وهكذا نرى أنّ سياسات التقييد والرقابة المخصّصة للمواد الإسرائيليّة/ اليهوديّة، والتي نشأت لدى مبدعين يهود/ إسرائيليّين ولصالح جهات أمنيّة رسميّة يهوديّة أو إسرائيليّة، تسري أيضًا، وبشكل غير ديمقراطيّ، على موادّ فلسطينيّة غُنمت أو نُهبت من مصادر فلسطينيّة. وعليه، بعد دخولها تصبح المواد الفلسطينيّة مقيّدة وسريّة لخمسين عامًا من يوم نشوئها، وأحيانًا لفترة غير محدّدة. وتخضع هذه المواد، أسوةً بالمجموعات اليهوديّة/ الإسرائيليّة، ومن بينها مجموعات التصوير والمجموعات البصريّة والتاريخيّة الأخرى، لسياسات الأرشيف العامّة، ولا يمكن الإطلاع عليها إلّا بعد إزالة التقييدات الثابتة في القانون وفي الأرشيف وبعد تصديق الرقابة على ذلك، دَعْ عنكَ المواد ذات الأهميّة التاريخيّة الفلسطينيّة التي نشأت/ صُوّرت على يد مصّورين يهود.

ويكشف الكتاب منظومات القوى الماثلة في صلب أرشيف الجيش الإسرائيليّ. فهذا الأرشيف يمارس -كما أسلفنا- نُظمًا وقوانينَ مختلفة لتقييد الإطلاع على المواد الموجودة بحيازته. وتُراوح سنوات التقييد في داخل المدى الذي حُدّد في أنظمة

٢٢ يُنظر إلى الحاشية رقم ٢ أعلاه.

الأرشيفات ٢٠١٠ [٢٣] ويبلغ خمسين عامًا. زدْ على ذلك أنّه في حال كان الأرشيف يخشى من أن يؤدّي الكشف عن مادّة معيّنة إلى المسّ بأمن الدولة أو بعلاقاتها الخارجيّة، يتمّ تعريف المادّة كمادّة سريّة ويجري تقييدها لفترة غير محدّدة. ويسمح قانون حرية المعلومات (١٩٩٨) بتقييد الإطلاع لفترة زمنيّة أطول من المذكورة، وبما يلائم قراراته الحصريّة. وقد جاء في الفصل المعنون «معلومات يُمنع تسليمها أو عدم وجوب تسليمها» في البند ١أ من القانون: «تُمنع سلطة جماهيريّة من توفير المعلومات {...} التي يُخشى أن يؤدّي الكشف عنها إلى المسّ بأمن الدولة، وبعلاقاتها الخارجيّة، وبأمن الجمهور أو بأمان وسلامة شخص ما».[٢٤] إلى جانب ذلك وفي حالات معيّنة، فإنّ الباحث الذي يسعى للإطلاع على أرشيف الوثائق التابعة للجيش الإسرائيليّ يواجه تقييدًا آخر يتمثّل بتعلّقه بالوسيط. فالباحث لا يملك أيّ منفذ مباشر إلى ملفات الأرشيف، والشخص المسؤول من طرف الأرشيف يقوم بالغربلة الأولى للمواد لصالح الباحث، بعد تعريف الموضوع، وعندها يكون الباحث متعلّقًا بالسياقات التي يقترحها الوسيط. وقد تغيّرت معاينة أرشيفات الصور على مرّ السنين؛ ففيما كان ممكنًا في الماضي الإطلاع على الصور والملفات الأصليّة التي صُنّفت في داخلها الصور -بما يشمل تلك المفتوحة لاطلاع الجمهور- قام الأرشيف في السنوات الأخيرة بتغيير سياسته، ولا يمكن الآن إلّا الإطلاع على المسوحات الضوئيّة الرقميّة. هذا الأمر أبقى سائر التفاصيل

---

٢٣ http://www.archives.gov.il

٢٤ https://www.nevo.co.il/law_html/Law01/144M1_001.htm . يستند التقييد، كذلك، على قانون الأرشيفات (١٩٥٥)، البند رقم ١٠.

مغلقة أمام الإطلاع اليوم، مثل: ملاحظات الرقيب والمستشارين القانونيّين وموظّفي الأرشيف، أو المعلومات المدوّنة على الصورة أو على جهتها الخلفيّة بيد المصوّر نفسه أو موظفي الأرشيف، والتي مكّنت من اقتفاء أثر عمل المصوّر أو أثر الإدارة الكولونياليّة.[٢٥] كما أنّ الإطلاع على «الأرشيف من وراء الأرشيف» غير ممكن. وفي حالات كثيرة، يظلّ السؤال حول طريقة وصول الصور/ الأرشيفات/ المجموعات الفلسطينيّة إلى الأرشيف العسكريّ من دون جواب. وعليه، اضطررتُ لتطوير منظومة بديلة لجمع المعلومات، والتي سأناقشها بتوسّع لاحقًا، واقتفاء الآثار وإجراء اللقاءات مع الجنود الذين قاموا بأخذ الغنائم أو نهب المواد والأرشيفات الفلسطينيّة. وقد مكّنتني هذه المنظومة في المرحلة الأولى من تأكيد وجود غنائم/ مواد منهوبة في الأرشيفات، وهو الأمر الذي لم أتلقّاه من الجهات الرسميّة. وقد أعانتني أيضًا في اقتفاء أثر مصدر المواد (provenance) و«شجرة نسب» الصورة/ الأرشيف/ المجموعة: من لحظة غَنْمِها وحتى شكل إخفائها في الأرشيف، وبالتالي بناء تخطيط لأشكال السيطرة عليها ومسار الإدارة الكولونياليّة (يُنظر أيضًا: Sela 2017).

من خلال معاينة موقع جمعية حقوق المواطن يتّضح أنّ الإحباط ومنع الوصول ومنع الإطلاع على المواد، إلى جانب المماطلة والتمييز بين الباحثين والأبحاث، ومراكمة الصّعاب والمعوّقات والمسّ بحرية البحث- كلّها ظواهر واردة في الشكاوى المتعلّقة بعمل أرشيف الجيش الإسرائيليّ. فعلى سبيل المثال، في المداولة

---

٢٥ الملفات الورقيّة الأصليّة في أرشيف الدولة أغلقت هي الأخرى مؤخرًا، ولا يمكن إلّا الإطلاع على الملفات الرقميّة، وستخضع للرقابة العسكريّة (مطر ٢٠١٨).

التي جرت يوم ١٧/ ١/ ٢٠٠٥ في لجنة القانون والدستور والقضاء في الكنيست، وجّه رئيس اللجنة سؤالًا إلى د. إفيتار بن تسيدف، حول معايير الإطلاع على المواد السريّة (في ذلك السياق كان الحديث يجري عن المواد السريّة الخاصّة بلجان التحقيق). كان بن تسيدف قد شغل لسنوات طويلة مهامّ في الجهاز الأمنيّ وكان محرر مجلّة «معرخوت» (معارك)، وأجاب: «أن يكون من جماعتنا. كنت محرّر جريدة معرخوت. في هذا الإطار قبلت بهذا. ولو لم أكن محرر جريدة معرخوت لم أكن لأقبل».[٢٦] زدْ على ذلك أنّ الأرشيف هو الذي يقرّر هويّة الباحثين الذين يُسمح لهم بإجراء الأبحاث، وأيّ أبحاث يجرون، وهو يفرض التقييدات على معاينة الموادّ المختلفة. وفي مجالات عديدة طُلب من الباحثين تقديم طلب للحصول على مكانة «باحث مُرخّص» لمعاينة المواد السريّة، وهو إجراء سنتطرّق إليه في «لجنة الكشف».[٢٧] يُعرّف هذا الإجراء اليوم بشكل مختلف، إلّا أنّ جوهره ظلّ على حاله.[٢٨] وهكذا يظلّ القرار بخصوص من يُسمح له بالبحث/ الإطّلاع على المواد السريّة أو الأخرى، خاضعًا لاعتبارات الأرشيف الحصريّة. وهذا ما كتبه مراقب الدولة حول هذه المسألة: «مجرّد الحاجة لاستصدار إذن، وشروط الإذن تثير الشكوك بالكيل بمكياليْن تجاه المعنيّين بالإطلاع على المواد، خلافًا

---

٢٦ موقع جمعية حقوق المواطن على الإنترنت: https://www.acri.org.il/he/1940

٢٧ تراسل مع د. موطي جولاني، ١٥/ ٨/ ٢٠٠٩.

٢٨ حول إمكانيّة تقديم طلب للإطلاع على مواد أرشيفيّة مقيّدة بمكانة «باحث مرخّص»، يُنظر إلى موقع أرشيف الجيش http://www.archives.mod.gov.il/pages/MISC/z-chukim.asp?AR=1. نوقش الموضوع في لجنة معاينة المواد المقيّدة. يُنظر الموقع الجديد: http://www.archives.mod.gov.il/about/Pages/hukimtkanot.aspx

للمعايير المتّبعة في البحث العلميّ».[٢٩] وفي مستند كتبه المحامي أفنير بينتشوك من جمعية حقوق المواطن، جاء: «بخصوص معالجة مسألة السيد جورنبيرج (صحافيّ طلب إجراء بحث حول بدايات الاستيطان في الأراضي المحتلّة بين عامي ١٩٦٧-١٩٧٧، ر. س.)، فقد اطّلعنا على أنماط العمل والمنظومات التي يستخدمها الجهاز الأمني للتصعيب على الباحثين وعلى إجراء الأبحاث المستقلّة وغير المنحازة. وقد اكتشفنا أيضًا أن مراقب الدولة سبق أن انتقد قبلنا النواقص الخطيرة التي اكتشفها في إدارة الأرشيف، ومن ضمنها التمييز بين الباحثين، والتدخّل في مضامين الأبحاث، وإجراءات العمل الباطلة و«السريّة»، والمماطلة في الكشف عن الوثائق، وغيرها».[٣٠] وهذا ما كتبه مراقب الدولة: «تقييد حريّة البحث {...} تشوّش على إجراء الأبحاث حول الماضي وتمنعنا من استخلاص العبر منه، وهي عبر حيويّة لحياتنا في الراهن والمستقبل. وهي تمسّ أيضًا الخطاب العامّ الديمقراطيّ، وتسمح لأفراد بأن يقرّروا ما هو جيّد لمعاينة المواطن، وبالتالي ما هو جيّد لتفكير المواطن».[٣١] وعلى مرّ العقد الأخير انتقد مراقب الدولة بشدّة،

---

٢٩ من موقع جمعية حقوق المواطن على الإنترنت تعقيبًا على تقرير مراقب الدولة الخمسين:
https://www.acri.org.il/he/2007
يُنظر أيضًا قانون حريّة المعلومات الذي يبلور حقّ «كلّ مواطن إسرائيليّ أو مقيم {...} بالحصول على معلومات من سلطة عامّة»، إلى جانب مراقبة ونقد مسلكيات وأداء المؤسسات الحاكمة المختلفة في الدولة، عبر منالية المعلومات التي تحتفظ بها سلطات القانون (الحاشية رقم ٢٤ أعلاه).

٣٠ تُنظر الحاشية رقم ٢٦ أعلاه. في عام ٢٠٠٤ توجّه الصحافيّ والباحث جرشوم جورنبيرج إلى جمعيّة حقوق المواطن، بعد أن رفض أرشيف الجيش السماح له بالاطلاع على موادّ أرشيفيّة في مسألة تخصّ بحثه.

٣١ تُنظر الحاشية رقم ٢٩ أعلاه. يُنظر أيضًا: Hughes and Scott 2008, 13-14

وبشكل متكرّر، شكل عمل وأداء أرشيف الجيش الإسرائيليّ، ومن ضمن ما قاله في هذا السياق، إنّ الأرشيف ينتهك حريّة البحث وحقّ الجمهور بأن يعرف. وكتب المراقب: «ثمة خشية من أنّ المبدأ الذي يسيّر طاقم الكشف ينصّ على عدم الكشف عن الوثائق إلّا بغياب أيّ خيار آخر، وهو مبدأ مخالف للمبدأ الذي من المفترض أن يسود».[٣٢] كما أنّ يعقوب لزوبيك، مدير أرشيف الدولة المتقاعد، أرسل مؤخرًا نقدًا غير مسبوق على تصرّفات الدولة والرقابة التي تمنع الوصول إلى المواد الأرشيفيّة والكشف عنها ونشرها. وهو يقول إنّه علينا الامتناع عن اللجوء إلى تسويغ «أمن الدولة» من أجل التستّر على إخفاقات الماضي، ومن ضمنها جرائم الحرب (أديرت ٢٠١٨). ويدّعي هيو وسكوت أنّ هذه الظاهرة تميّز الأرشيفات التابعة لأجهزة الاستخبارات التي تضحي «أكبر أعداء الباحثين في مجال الاستخبارات» (Hughes and Scott 2008, 13-15)، وأنّ الصدام بين الأجهزة الرسميّة المسؤولة عن الأمن وعن حق الجمهور الديمقراطيّ، هو برأيه صدام حتميّ في الدول الديمقراطيّة (المصدر السابق، ١٧-١٨).[٣٣]

في موقع أرشيف الجيش الإسرائيليّ على الإنترنت ورد: القوانين (قوانين دولة إسرائيل، ر. س.) الواردة هنا (مثل قانون الأرشيفات ١٩٥٥ وقانون حريّة المعلومات ١٩٨٨)، تؤثّر على عمل الأرشيف».[٣٤] واختيارهم لجملة «تؤثّر على عمل الأرشيف» يشير إلى أنّ أرشيف الجيش الإسرائيليّ يخضع، ربما، لقوانين

---

٣٢ تُنظر الحاشية رقم ٢٩ أعلاه.

٣٣ هم يتحدّثون بالأساس عن الأرشيفات في إنجلترا وفرنسا وأميركا.

٣٤ http://www.archives.mod.gov.il/about/Pages/hukimtkanot.aspx

أخرى، وأنّ الأرشيف أبقى لنفسه نطاقًا واسعًا من حريّة التصرف.[٣٥] زدْ على ذلك، وكما يكتب مراقب الدولة وما يتّضح من عمل جمعيّة حقوق المواطن، أنّ الأرشيف لا يسارع إلى نشر معلومات انتهت مدّة تقييدها،[٣٦] وهو يُراكم القيود والصعوبات على الباحث الذي يسعى لمعاينتها.[٣٧] وقال مراقب الدولة إنّ نُظم الكشف المتّبعة في الأرشيف يمكن أن تغلق بشكل شبه تامّ إمكانية قيام الباحثين بمعاينة المواد الأرشيفيّة الخاصّة بالجهاز الأمنيّ. ويُنظر في هذا السياق إلى الالتماس الذي قدّمته صحيفة يديعوت أحرونوت ومراسلها د. رونين بيرجمان بخصوص أرشيفات المؤسّسات الأمنيّة في دولة إسرائيل، التي لا تخضع لإشراف أرشيف الدولة، وهي غير مفتوحة لمعاينة الجمهور وفقًا للقانون. إلى جانب ذلك، يطلب الملتمسون معرفة السبب في أنّ هذه الأرشيفات تنشط

---

٣٥ جاء في موقع الجيش الإسرائيليّ على الانترنت: «لا يسري قانون حرية المعلومات على المواد الأرشيفيّة. مع ذلك، فإنّ القانون يعبّر عن حق الجمهور بالحصول على المعلومات، وأرشيف الجيش الإسرائيليّ كمزوّد معلومات يعي واجبه بنقل المعلومات التي يطلبها الجمهور تأسيسًا على قانون حريّة المعلومات» http://www.archives.mod.gov.il/pages/MISC/z-chukim.asp?AR=1/ الصيغة الواردة في الموقع الجديد للأرشيف تختلف قليلًا: «هذا القانون (قانون حرية المعلومات– ر. س.) يعكس حق الجمهور بتلقي المعلومات. لكن، ورغم أنّ القانون لا يسري على المعلومات الأرشيفيّة، فإنّ أرشيف الجيش الإسرائيليّ كمزوّد معلومات يعي واجبه بنقل المعلومات التي يطلبها الجمهور تأسيسًا على القانون وبما يلائم تعليماته. وإلى جانب قانون حرية المعلومات نُشر «أمر حرية المعلومات»، الذي يفصّل المواضيع التي لن تُعطى معلومات بصددها «لأسباب تتعلّق بالحفاظ على أمن الدولة...» تُنظر الحاشية رقم ٣١ أعلاه.

٣٦ تُنظر الحاشية رقم ٢٦ أعلاه.

٣٧ تُنظر الحاشية رقم ٢٣ أعلاه.

بشكل مستقلّ ولا تنشط كأرشيفات عامّة كما ينصّ القانون.[٣٨] لكنّ إسرائيل لا تنشر ما لديها، والمعونة القضائيّة لا تساعد في الكشف عن هذه المعلومات. ويشكّل اتباع سياسة تمييزيّة بين الباحثين وفتح المواد بشكل انتقائيّ،[٣٩] أو تليين القوانين لصالح باحثين يتبنّون أجندات تطابق الأجندات المؤسساتيّة، واحدًا من أهمّ سمات أرشيف الجيش الإسرائيليّ الأساسيّة، وخصوصًا فيما يتعلّق بالمواد الفلسطينيّة التي تروي تاريخًا آخر. زدْ على ذلك أنّ الأرشيف لا يقوم بأي تدابير تُذكر لإعادة المواد إلى أصحابها، وهي تظلّ تحت الحيازة الإسرائيليّة. وتحظى كلّ هذه الأنماط والسلوكيّات بدعم من نُظم ومعايير ومناهج أدائيّة واستراتيجيّات وسياسات مَبنويّة وقوانين تُنظّم عمل الأرشيف، وشكل أرشفة وتصنيف المواد كما يتّضح من هذا الكتاب.

لا تكتفي الأرشيفات التي غُنِمت أو نُهبت باستحضار الوضع الكولونياليّ فحسب، بل أيضًا تحوّلت إلى مرآة لعلاقات القوى الكولونياليّة. وتتمثّل هذه العلاقات في أعمال النهب والغَنم للمواد الثقافيّة، ونقلها إلى المحتلّ، وفي إخفاء المواد المنهوبة داخل الأرشيف الكولونياليّ. وتدّعي El-Shakry Omnia التي تطرّقت إلى الأرشيفات في الشرق الأوسط، أنّ هذه الأرشيفات تعكس القوة الهدّامة الواقعة عليها، سواءٌ أكانت تُستخدم كظلّ أو كموادّ حقيقيّة، كإنتلكتواليّة أم ماديّة ملموسة (El-Shakry 2015, 934). وللأرشيف الكولونياليّ حصّة كبيرة في خلق وهَيكلة

---

٣٨ بخصوص مسألة بيرچمان يُنظر http://www.nevo.co.il/Psika_word/kitvey/06103790-kt.doc.

٣٩ زيادة على ذلك، في فترات مختلفة جرى فتح وإغلاق صور وأشرطة مختلفة وقعت غنيمة، وهي تبيّن منظومة السيطرة الاعتباطيّة في الدولة الكولونياليّة.

الوعي في الوضعيّة الكولونياليّة، ومواقعَ مُنتجة للمعرفة. وتُبيّن آن لاورا ستولر (٢٠٠٢) أنّ الأرشيفات لم تعد مجرّد مصادر «sources»، ويجب التعامل معها على أنّها مواضيع «Subjects»؛ ذاتٌ مُؤسّسة. ولذلك، ترى ستولر أنّ من واجب الباحثين في الأرشيفات الكولونياليّة أن يبحثوا في الأرشيفات، لا باعتبارها مواقع يجب انتشال المعلومات منها (retrieval) بل باعتبارها «knowledge production». وعليه، لو رغبنا «في فهم/ دراسة أرشيف ما، يجب علينا أولًا أن نفهم/ ندرس المؤسّسة التي يخدمها هذا الأرشيف» (Stoler 2002, 107)، والقوة المؤسّساتيّة الممارَسة عليه.

تنشغل الأرشيفات الكولونياليّة التي تُخزّن الغنائم أو المواد المنهوبة، أساسًا، في محو وتغييب تاريخ الخاضع للاحتلال، وهي تعكس أكثر من غيرها منظومة القوى القائمة: «الأرشيفات الكولونياليّة هي في الوقت ذاته موقع المتخيَّل (the imaginary)، وموقع المؤسّسات التي تُصمّم وتُخيّط التأريخات (fashioned histories)، فيما تقوم بمحو أو كشف أو استنساخ القوة السائدة في الدولة» (المصدر السابق، ٩٧). وبما أنّ عمليّة النهب الكولونياليّة للكنوز الثقافيّة لا تنتهي في عمليّة النهب الماديّة الملموسة، بل تتعدّاها إلى شكل الإدارة الكولونياليّة، فإنّ الأرشيف الكولونياليّ يسيطر على كشف (أو تغييب) المواد من الحيّز، وعلى تفسير هذه الموادّ. عليه، يجب القيام ببحث ومتابعة لعملية إدارة المعرفة الأرشيفيّة كما تقترح ستولر. وترى ستولر أنّ التحدّي الماثل أمام الباحثين في الأرشيفات الكولونياليّة لا ينحصر في تعقب أثر الحقيقة والخيال الملائميْن لتاريخ المحتلّ، بل الكشف عن «التسييس الكامن في عمليّة التخزين» (Stoler 2002, 93-94).

يمكننا العثور على أمر موازٍ لهذا في الأبحاث التي أجريت عن الأرشيفات الكولونياليّة، والتي توثّق منظومة الإدارة الكولونياليّة وأشكال تدوين التاريخ، حتى بعد انتهاء السيطرة الكولونياليّة. فعلى سبيل المثال، نُقلت غالبية الأرشيفات الكولونياليّة في الجزائر إلى فرنسا، رغم المطالبة بإبقائها في الجزائر كي يتمكّن الباحثون المحليّون من إجراء الأبحاث عليها (Shepard 2015, 873). وحتى الأرشيفات التي تصف السيطرة الكولونياليّة البريطانيّة نُقلت إلى بريطانيا بعد استقلال المستعمرات، وظلّت تحت السيطرة البريطانيّة، وهي ترى فيها أرشيفات مهاجرة («migrated archives»). وبعد نقلها إلى «الدولة الأمّ» الكولونياليّة، تواصل هذه الأرشيفات خضوعها لنظام / سيطرة الدولة المحتلّة، وهي ما تزال لليوم خاضعة للقرار السياديّ البريطانيّ بخصوص هوية المواد التي تُفتح، والأجزاء التي تُروى من التاريخ. وكانت حكومة كينيا، مثلًا، قدّمت طلبات متكرّرة لإعادة الأرشيفات والوثائق، إلّا أنّ هذه الطلبات رُفضت بتسويغ أنّ الحديث يدور عن أرشيفات بريطانيّة. يُضاف إلى ذلك وجود توجيهات بإتلاف/ حرق قسم من هذه الأرشيفات. أمّا المواد التي نُقلت إلى بريطانيا فكانت خاضعة لسياسة التغييب والإخفاء والرقابة (حتى فترة قريبة). وقد اُتخذت هذه التدابير «لعدم إحراج البريطانيّين»، كون هذه الأرشيفات توثق انتهاكات لحقوق الإنسان وتعذيبات واغتصابات واعتقالات غير قانونيّة وما شابه (المصدر السابق، Rawlings 2015).

ويستعرض تود شيبرد التاريخ الطويل للنهب والإخفاء (وأحيانًا حرق أو إتلاف مُدبّريْن)، وللمحو والتغييب المتعمّديْن اللذيْن يرافقان عادة هذه الأفعال: بدءًا بالأرشيفات الإسبانيّة في الفلبين التي أتلفها الأميركان (بعد

عام ١٨٩٨)، ومرورًا بالأرشيفات الأوروبيّة التي سرقها النازيّون ومن بعدهم الروس مع انتهاء الحرب، أو الأرشيفات التي غنمتها أميركا في العراق عام ٢٠٠٤ (Shepard 2015, 869). ومؤخرًا، ازدادت حدّة النقاش حول مسألة أرشيفات حزب البعث التي غُنمت في العراق ونُقلت إلى الولايات المتحدة (Montgomery 2011; Caswell 2011).

غالبية المعرفة الخاصّة بالشعوب الخاضعة للاحتلال، والتي يصنّفها الغرب على أنها «عالم ثالث»، موجودة في داخل metropolis، أي الدول القوميّة. ويُبيّن إعجاز أحمد، الذي بحث المسألة، أنّ هذه الأرشيفات لا تُفحص وفق معايير الأصلانيّين بل تُقاس وتُصنّف وفق معايير العالم الغربيّ (Aijaz 2000, 201-207). فأولًا، تُعالج هذه الأرشيفات في الأرشيفات الغربيّة وفق تكتيكات الإخراس والتلفيق والتمثيل الخاطئ الذي يلحق بغير الغربيّ. وقد تأسست أرشيفات الشعوب الخاضعة للاحتلال، دائمًا، لخدمة جمهور هدف غربيّ، ولم تُؤسس يومًا لعناية جمهور الهدف الأصلانيّ، الذي يمتنع عن التطرق إلى الممارسات العمليّة غير الغربيّة. زدْ على ذلك أنّ هذه الممارسات ممحوة في الأرشيفات الغربيّة. ولذلك يشكّل حفظ/ أرشفة التاريخ غير الغربيّ في الأرشيفات الغربيّة بواسطة الأدوات الغربيّة، ميزة مركزيّة وهدّامة لها (٢٩٣-٢٩٦).

تقع الأرشيفات الفلسطينيّة تحت النمط ذاته من الهيكلة والتفسير والإتلاف الغربيّة، التي تُمارسها عليها الأرشيفات العسكريّة الإسرائيليّة. وكون هذه الأرشيفات موجّهة إلى الجمهور الغربيّ، وخصوصًا الصهيونيّ، فإنّ ذلك يُمكّنها من محو مميزاتها الفلسطينيّة، وهي بذلك تمثّل أساسًا - كما يبيّن

إعجاز– طريقة التمثيل الغربيّة– الصهيونيّة. فعلى سبيل المثال، يُصنّف أرشيف الجيش الإسرائيليّ الأفلام التي أُخذت غنيمة من بيروت والتي سنتطرّق إليها لاحقًا، على أنّها «افلام غنائم من أرشيف منظمة التحرير الفلسطينيّة في بيروت»، إلّا أنّ مؤسّسة كهذه لم تكن قائمة على أرض الواقع، ولم يقم الأرشيف بتبيّن هوية المؤسّسة التي أخذت منها الأفلام، فيما دُمغت بدمغة ملكيّة لأرشيف الجيش الإسرائيليّ. إضافة إلى هذا، وبما يخصّ هذه المواد، فقد تلقيتُ ردًّا من المستشار القانونيّ للجهاز الأمنيّ يوم ٢٠٠٨/١١/٢٦ بأنّ «الصور (الفلسطينيّة، التي غُنمت في بيروت– ر. س.) **هي موادّ أرشيفيّة تابعة للجيش الإسرائيليّ** (الإبراز من عندنا)، ولذلك فهي «مواد مقيّدة» كما تنصّ المادة ٧(أ) من أنظمة الأرشيفات... وعليه فليس بوسعنا تسليم المواد المذكورة لمعاينة الجمهور» (الملحق رقم ١). أي أنّ الأرشيف يشير إلى ملكيّته على المواد الفلسطينيّة التي غُنمت.

مثال آخر على ذلك، الصور الفلسطينيّة في أرشيف الهَـجَناه. فالأرشيف يشير في سجلات محتوياته إلى أنّ حقوق الملكيّة الفكريّة تتبع للأرشيف، لا للمصوّر أو أصحابها الفلسطينيّين. وإلى جانب ذلك، تحمل الصور دمغة الأرشيف الإسرائيليّ للتدليل على الملكيّة. وقد وصلت هذه النيـچاتيـڤات بطرق غير واضحة إلى بيت خاصّ لعضو من الهَـجَناه وخُبّئت هناك (التصويرة رقم ٦).[٤٠] بعدها، نُقلت هذه النيـچاتيـڤات إلى أرشيف الهَـجَناه، وهي تُعرض من وقتها

٤٠ يُنظر لاحقًا ما يرد من معلومات بخصوص الصور الفلسطينيّة التي نُقلت («جرى التبرع بها») لأرشيف الهَـجَناه على يد چرشون سلوتسكائي. وتُنظر الحاشيتان ٨٨ و٨٩.

٦

بطاقيّة أرشيف «الهَـجَناه»

مصوّر غير معروف (على ما يبدو، خليل رصاص)

أُلصِق على الصورة نصّ مطبوع بآلة كاتبة: «رؤساء عصابات ومشاورات»

كُتب على بطاقيّة الأرشيف:

«مشاورة – مجلس رؤساء العصابات العربية

تمّ تلقّيها من: چرشون سلوتسكائي

حقوق الملكية الفكرية: أرشيف «الهَـجَناه»

نِـچاتيـف: موجود»

أُخذت الصورة من مصادر فِلَسطينية لاحتياجات استخباراتية مع صور أخرى، وخُبئت في بيت عنصر الـ«الهَـجَناه» چرشون سلوتسكائي

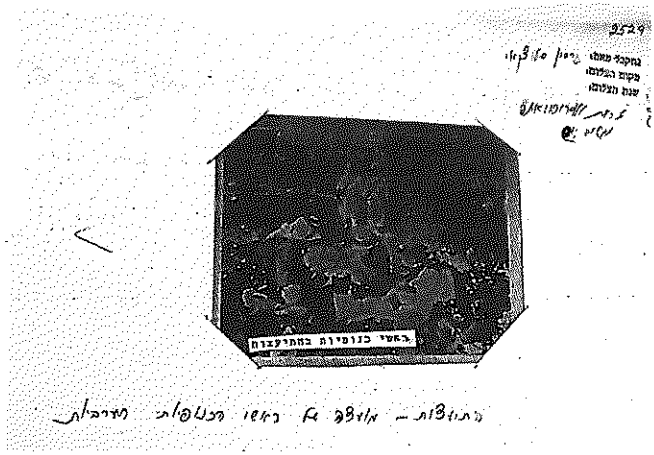

على أنّها مواد تتبع لحيازة الأرشيف. وسواءٌ غُنمت هذه الصور أم نُهبت أم وصلت الأرشيف بطريقة أخرى، يهمّنا القول إنّ حقوق الملكيّة يجب أن تظلّ بيد صانعها أو ورثته، لا بيد الأرشيف.

وقد امتنع أرشيف الجيش الإسرائيليّ عن البحث في المواد الفلسطينيّة وتصنيفها وفقًا للمعايير التي جُمعت فيها هذه المواد وصُنّفت أصلًا، وقد أخضعها لمنظومة تصنيف وتفكيك رموز وتفسيرات غريبة، تتعامل مع هذه المواد على أنّها ذات أهميّة ثقافيّة هامشيّة. وقد أوردت على طول الكتاب الأبعاد المختلفة للإدارة الكولونياليّة، وقمت أيضًا، وقدر ما استطعت، بتفحّص القوة التي مورست/ تُمارس على كلّ مجموعة/ أرشيف فلسطينيّيْن من طرف الأرشيف الإسرائيليّ بشكل عينيّ. ومع بعض التعميم، يمكن القول إنّ الموروث الصهيونيّ طويل الأمد، قد صنّف الفلسطينيّ على أنّه عدوّ ومخرّب، كما سبق أن طرحت هذا أعلاه بشكل مقتضب. فعلى سبيل المثال، في الصور التي غُنمت حتى سنوات الخمسين من القرن العشرين، يُعرّف الكثيرون من المقاتلين الفلسطينيّين في أوراق الأرشيف، وكما تقدّم، بأنّهم «عصابات عربيّة» (يُنظر إلى التصويرتيْن رقم ٤ و٦ أعلاه)، وهي عملية تصنيف تؤدّي لخلق موقف سلبيّ تجاههم. وفي غالب المرّات، تُسمّى البلدات الفلسطينيّة في الأرشيفات الإسرائيليّة، بأسمائها العبريّة، بغية محو هويّتها الفلسطينيّة (مثال ذلك، تسمية عاقير بعكرون) وماضيها، وتعريف الفلسطينيّين بأنّهم «عرب أرض إسرائيل» من أجل قطع العلاقة بين الفلسطينيّ ووطنه (رابينوفيتش ١٩٩٣)، فيما يُعرّف الأشخاص الذين طُردوا من بيوتهم في النكبة ويسعون للعودة إليها، على أنّهم «متسلّلون»، وهي كنية تخلق تعاملًا

عدائيًا تجاههم (يُنظر مثلًا إلى التصويرة رقم ١٠٧ في الجزء الكَتالوچيّ، Sela 2009, 13-14; Bar-Tal 1999, Podeh 2000). الصور التي غُنمت من استوديو المصوّر رصاص مُصنّفة على أنّها «وُجد(ت) في فوتو ريساس القدس» (تُنظر التصويرة رقم ٤٦) أو «سُرقت» (تُنظر التصويرة رقم ٣٩)، وهي توصيفات تسعى لدَهن عمليات النهب بألوان برّاقة. وعلى سبيل المثال، «عرض الوثائق والغنائم الفلسطينيّة» في مركز المعلومات الاستخباراتيّة والإرهابيّة، في مركز الموروث الاستخباراتيّ في چليلوت، التي تشمل من ضمن ما تشمل أغراضًا فنيّة وتصاميم چرافيكيّة،[٤١] يُعرض بشكل منحاز على أنّها «وسائل إيضاحيّة دعائيّة تُستخدم للتربية والإرهاب» (التصويرة رقم ٧أ مثلًا، حمّالة مفاتيح). ويجري ذلك في مقابل أغراض فنيّة مشابهة في جوهرها وماديّتها، مع رموز صهيونيّة أنتجت على مرّ القرن العشرين، والتي يجري غرسها في الوعي الإسرائيليّ على أنّها أغراض فنيّة ترمز للثقافة الإسرائيليّة «الجميلة»، فيما تؤنّث بفخر للقوميّة الإسرائيليّة الفخورة (سيلع ٢٠٠٧، يُنظر مثلًا إلى المفاتيح التي صُنعت بعد حرب ١٩٦٧ – التصويرة رقم ٧ب).

في الحالات القليلة التي تُعاد فيها المواد/ الأرشيفات إلى أصحابها، يتّبع أرشيف الجيش الإسرائيليّ الطريقة التالية: «النسخ قبل الترجيع»، من أجل

---

٤١ المعرض مفتوح أمام الجمهور الواسع ويمكن مشاهدته أيضًا عبر موقع الانترنت:
http://www.tourwise.co.il/virtualTours/?tour=353_HE&p_win=1
إلى جانب الوسائل القتاليّة الواردة في الكتب الدراسيّة والخرائط والكتيبات الإرشاديّة والغرافيكا والأغراض الفنيّة التي جُمعت من مصادر فلسطينيّة. يقوم هذا المعرض بتصنيف المواد الثقافيّة على أنّها خطر أمنيّ. وجزء من أغراض المعرض صودر من أسرى سياسيّين في السجون الإسرائيليّة.

٧ (أ)

قِطع فنّية أُخذت غنيمة، وهي معروضة في المعرِض الثابت في مركَز المعلومات للاستخبارات والإرهاب، في مركَز ميراث الاستخبارات في چليلوت. صُوّرت بهاتف محمول خلال زيارة في المعرِض في تمّوز ٢٠٠٩

٧ (ب)

قِطع فنّية من إنتاج جهات إسرائيلية بعد حرب ١٩٦٧ مثلما عُرضت في معرِض ستّة أيّام وأربعون عامًا، مُتحف پيتح تكڤا للفنون، ٢٠٠٧. أمينة المعرِض: رونة سيلع

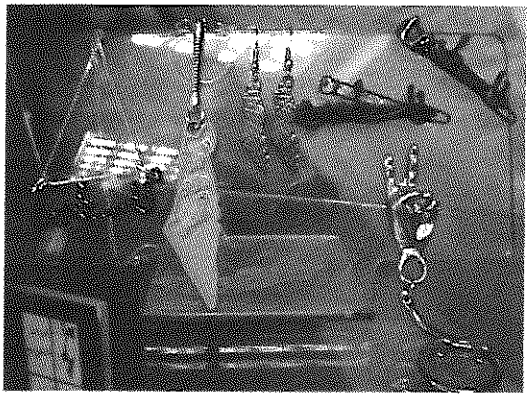

أن يبقي لديه أكبر قدر من المعلومات عن الخاضع للاحتلال. زدْ على ذلك أنّ استراتيجيّة الأرشيف بنسخ موادّ ليست له ومن دون إذن أصحابها، هي استراتيجيّة استعلائيّة أخرى تشير إلى أنّ أرشيف المسيطر والمهيمن يواصل السيطرة على مواد ليست له، ويصادر حقوق الملكيّة الفكريّة عليها، وحتى أنّه يطلب دفع مقابل له عند نشر المواد. مثالُ ذلك مواد مركز الأبحاث التي غنمها الجيش الإسرائيليّ، والتي سنتطرّق إليها لاحقًا، إذ أنّها نُسخت قبل إعادتها في إطار صفقة تبادل أسرى. وهذا ما كتبه لي مدير أرشيف الدولة في أعقاب استجواب أرسلته إليه فيما يخصّ أرشيف التصوير الذي غُنم في بيروت والذي سأتطرّق إليه لاحقًا هو أيضًا: «رأيت المجموعة... أصدرت توجيهات إلى مديرة الأرشيف بإعادته إلى أصحابه، بعد نسخه ضوئيًا».[٤٢]

٤٢ بريد إلكترونيّ من يهوشع فروينديليخ، ٢٠٠٩/٨/٣٠.

الفصل الثاني

جمع المنظومات العسكريّة الرسميّة للمواد المتعلّقة بالفلسطينيّين حتى مطلع سنوات الخمسين

أ. خلفيّة: الجَمع الاستخباراتيّ وبدايات التصوير العسكريّ اليهوديّ

تطوّر التصوير العسكريّ اليهوديّ، أساسًا، نتيجة لتطوّر وتبلور النشاط الاستخباراتيّ في الوحدات أو الأجسام العسكريّة قبل الدولة، وتلك التي نشطت بعد قيام الدولة.[٤٣] ففي منظمة الهـَجَناه، التي كانت التنظيم العسكريّ للاستيطان اليهوديّ في فترة الانتداب البريطانيّ، اعتقدوا أنّ ثمة أهمية في جمع المعلومات الاستخباراتيّة، ومن ضمنها المعلومات البصريّة، حول الشعب الفلسطينيّ والمقاومة الفلسطينيّة. وكان من المفترض بهذه المعلومات أن تساعد في الصراع القوميّ ضدّ

---

٤٣ رغم أنّني سأتطرق في جزء من هذا الكتاب، أساسًا، إلى نشاطات الجهات العسكريّة في الهـَجَناه التي نشطت في مجال جمع المعلومات عن الفلسطينيّين في السنوات التي سبقت إقامة الدولة اليهوديّة، فقد جرت أيضًا عمليات جمع معلومات عن البريطانيّين وعن منظمات يهوديّة منافسة رفضت هيمنة مؤسسات الهـَجَناه وسُمّيت «المنشقون». وفيما بعد سُمي القسم الذي اشتغل بهذا قسم التجسّس المضادّ (هَران) ونشط في ضمن عمل الخدمات الإخباريّة.

الفلسطينيّين وأن تشكّل أهدافًا للاحتلال والسيطرة والمراقبة. وهكذا، نرى أن التصوير العسكريّ في الهَـجَناه تطوّر في ضمن جهتيْن عسكريّتيْن- استخباراتيّتيْن: الأولى، كجزء من النشاط الاستخباراتيّ الشامل الخاصّ بالهَـجَناه بدءًا بنهايات سنوات العشرين من القرن الماضي، وبشكل مكثّف وأكثر تنظيمًا في ١٩٤٠، مع تأسيس الخدمات الإخباريّة (شاي) والخدمات الإخباريّة العربيّة. أمّا الثانية فتطوّرت في إطار القسم التقنيّ التابع لمكتب التخطيط الدفاعيّ في قيادة الأركان، الذي بدأ نشاطه مطلع سنوات الأربعين.[٤٤] ورغم كون هذين الجسمين منفصليْن داخل الهَـجَناه، إلّا أنّهما أقاما علاقات متبادلة كثيرة. وقد تلقّى الجسمان دعمًا من الوكالة اليهوديّة، إلاّ أنّ القسم التقنيّ كان ميدانيًّا أكثر في طابعه.

قياسًا بما قامت به أقسام التصوير في وحدات الدعاية الترويجيّة المدنيّة التابعة للمؤسّسات المدنيّة (صندوق إسرائيل الدائم، كيرن هيسود والوكالة اليهوديّة)، من استخدام التصوير بشكل مكثّف وواسع وواعٍ ومُنظّم، من أجل ترويج الغايات الصهيونيّة والدعائيّة في العالم، ولغرض الترويج الدعائيّ داخل المستوطنات اليهوديّة

٤٤ هناك من يجزم بأنها بدأت عملها في نهايات سنوات الثلاثين. واليوم يتعاملون مع هذا القسم على أنّه «خدمات خرائط»، مع أنّني لم أجد أيّ مستمسك يثبت ذلك. وعلى ما يبدو فإنّ هذا الاسم أعطي للقسم في أعقاب تأسيس قسم «خدمات الخرائط والصور» عام ١٩٤٨، الذي واصل بشكل كبير نشاط القسم التقنيّ التابع لمكتب التخطيط. وعليه، يرد هنا اسم القسم الأصلي: «القسم التقنيّ». وخلافًا لما ورد هنا، تدّعي زهافا أوستبيلد أنّ أقسام جمع المعلومات عن السكان الفلسطينيّين لم تقم إلّا عام ١٩٤٦، وهي وحدات الجوّالة لتأسيس ملفات القرى، ووحدة المستعربين التابعة للپَلماح التي سعت لزرع أشخاص في أماكن عربيّة، ووحدة التصوير الجويّ (أوستبيلد ١٩٩٤، المجلد ١، ٣٢٥).

في سنوات الثلاثين والأربعين (سيلع ٢٠٠٠)، فإنّ التصوير العسكريّ في بداياته (حتى تأسيس خدمات الخرائط والصور ومجلة بَمَحنيه العسكريّة كما سأناقش هنا) كان محدود النطاق. زدْ على ذلك أنّ استخدام المؤسسات الوطنية للتصوير بشكل واسع، خلّف مراسلات متشعّبة تُدلّل على الاستراتيجيّات المركزيّة الخاصة بالتصوير، وعلى سبل عمل أقسام التصوير في مديريات الدعاية وسبل عمل المصّورين أنفسهم (المصدر السابق). ومقارنة بذلك، فإنّ المراسلات التي تبقت بخصوص جذور التصوير العسكريّ قبل إقامة دولة إسرائيل هي قليلة، بما حملته من نوايا مستخدميه وسياساتهم وسبل عملهم والأشخاص الذين نشطوا في هذه الإطار، وغيرها. لقد تمثّل سبب ذلك، أساسًا، في طابع النشاط التصويريّ الذي تركّز في الغالب بجمع المعلومات سرًّا وتجسّسًا، وامتنع بشكل واعٍ عن ترك الآثار وراءه، ونتيجة للاستخدام القليل للتصوير نسبيًّا.[٤٥] إلى جانب ذلك، وبما أنّني لم أحصل على إذن

٤٥ مصوّرون مختلفون ممّن عملوا لدى الهَجّناه تخلصوا من النيجاتيفات خشية أن يُلقي البريطانيون القبض عليهم. وقد ظلت في أرشيف الهَجّناه صور خُبّئت في البيوت ونقلها فيما بعد أفراد، أو صور الُتقطت في إطار تنظيميّ أو وقعت غنيمة. كما أنّ ملفات الخدمات الإخباريّة في الوكالة وُجدت في الأرشيف الصهيوني، لا تحوي معلومات نصيّة حول نشاط الجهات التي استخدمت التصوير في العقود التي سبقت قيام الدولة. المعلومات الأساسيّة الموجودة في أرشيف الهَجّناه هي شهادات لاحقة. ومن طبيعة الشهادات أن تكون شخصيّة وانتقائيّة، ولذلك فهي تحوي أحيانًا معلومات سريّة، وخصوصًا بما يتعلق بنشاط الأشخاص. ويتطرق يتسحاك عران، هو الآخر، إلى الفوارق في الشهادات النابعة من وجهات نظر مختلفة، ومن حقيقة أنّ «الذاكرة لم تعد كما كانت...» (أرشيف تاريخ الهَجّناه ١٩٤/ ٤). مع ذلك فإنّ المعلومات عن النشاطات ذاتها في منطقة التصوير بين سنوات العشرين وسنوات الأربعين، هي في الغالب متناغمة وتسمح بترسيم النشاط الحاصل في نطاقها.

بالإطلاع على مجمل المواد الموجودة في الأرشيفات العسكريّة، في كثير من المرّات، اضطررتُ للعمل مع القليل من المعلومات. وبما أنّ هذا البحث هو البحث الشامل الأول المخصّص لهذا الموضوع، فأنا آمَل أن يتوسّع يومًا ما، بعد أن يجري فتح المزيد من المواد في الأرشيفات العسكريّة لمعاينة وإطلاع الباحثين.[٤٦]

بعد تعيينه رئيسًا للخدمات الإخباريّة العربيّة عام ١٩٤٠ – وهو عام تأسيس خدمات الخرائط والصور[٤٧]، ألقى عزرا دنين محاضرة تحوي ما يشبه تلخيصًا للنشاط والعمل في مجال التصوير في الهَـجَناه، آنذاك، ورسمًا لخطوط العمل المستقبليّة في هذا المجال لدى الجهات العسكريّة الاستخباراتيّة في الهَـجَناه:

«يجب على نشاطاتنا أن تنعكس في:

١. دقيقة بالمحيط وطرقه والقرى بأصولها وتشعباتها {...}.

٢. صور جويّة وخرائط للتعرّف على المنطقة.

---

٤٦ بناء عليه، ستتضح الصورة في حال الكشف عن موادّ أخرى. وبالأساس، لم أنجح في العثور على مراسلات ومعلومات في الأرشيف بخصوص نشاطات الخدمات الإخباريّة في مناطق التصوير، ولم أستطع الاطلاع بشكل واسع على استطلاعات القرى وملفات القرى في أرشيف الهَـجَناه. وقد مُنعت أيضًا من الاطلاع على الأرشيف الذي من وراء أرشيف التصوير لدى الجيش الإسرائيلي، والأرشيفات/ المجموعات الفلسطينية الأخرى المغلقة (محدودة الاطلاع) في أرشيف الجيش الإسرائيلي. وفي حالات كثيرة كانت الصور والنص المرفق بها مصدر المعلومات الأساسيّ.

٤٧ عزرا دنين (١٩٠٣–١٩٨٤)، من مواليد يافا، وكان عضوًا في الهَـجَناه. وحتى قبل تأسيس الخدمات الإخباريّة العربيّة ترأس دنين الخدمات الإخباريّة الإقليميّة في الهَـجَناه، في مركز البلد (الجليل المتوسّط). بعد إقامة دولة إسرائيل عمل مستشارًا للشؤون العربيّة والشرق الأوسط في وزارة الخارجيّة.

٣. التعرّف بوجوه الناس، ومجموعات صور للجيران {...}». (مقتبس لدى سلومون ٢٠٠٥، ١٨-١٩).

وعليه، فقد شملت النشاطات التصويريّة لجمع المعلومات الاستخباراتيّة حول الفلسطينيّين، مركزيْن أساسييْن:

أ. **جمع المعلومات عن الأحياء الفلسطينيّة في المدن المختلطة، والقرى الفلسطينيّة ومحيطها، لغايات احتلاليّة مستقبليّة.** وحتى عام ١٩٤٨ جرى جمع مواد استخباراتيّة عن القرى والبلدات الفلسطينيّة، وقد حظيت مثل هذه المعلومات بكنية «ملفات القرى». بدأ القسم التقنيّ بتجهيز ملفات القرى ابتداءً من عام ١٩٤٣. وفي عام ١٩٤٥ بدأ جوّالون بتصوير البلدات من الأرض. وفي نهايات ١٩٤٥ بدؤوا بتصوير البلدات الفلسطينيّة من الجوّ: قام بذلك بدايةً أفراد القسم التقنيّ، ومنذ نهاية ١٩٤٦ تولت المهمة قوة الطيران التابعة لقيادة أركان السّلاح. وبعد عام ١٩٤٨ صُوّرت القرى والبلدات الفلسطينيّة في داخل إسرائيل لأغراض العلاقات العامّة والتوثيق، ولغايات السيطرة ومراقبة البلدات التي ظلّت ضمن نطاق دولة إسرائيل.

ب. **جمع المواد عن الناس، وتحضير ملفات عن فلسطينيّين تشمل المعلومات البصريّة.** جرى جمع المواد حتى عام ١٩٤٨، ومن ضمن ذلك صور لفلسطينيّين كانوا ناشطين في نشاطات وطنيّة- فلسطينيّة أو عسكريّة، وكانت الاستخبارات اليهوديّة مهتمّة بهم، إلى جانب معلومات/ صور عن جنود قدموا لمساعدتهم من الدّول العربيّة. بعد عام ١٩٤٨، وإبان الحكم العسكريّ، جرى جمع موادّ عن السكان الفلسطينيّين الذين طالبوا

بالعودة للسكن في بيوتهم وقراهم ومدنهم، وذلك لغايات السيطرة والمراقبة على ما يبدو.

وشملت الاستخبارات حول الفلسطينيّين، أيضًا، جمع استخبارات نصّيّة حظيت بكنية «استطلاعات»، وشملت ثلاثة أنواع من المعلومات:

أ. مسح لبلدات فلسطينيّة كما أسلفنا أعلاه (الملحق رقم ٤)

ب. «أحداث في الوسط العربي، استطلاعات وتحليلات مثيرة للاهتمام»

ت. معلومات عن الناس (من الكتالوج المحوسب التابع لأرشيف تاريخ الهَـجَناه).

بدأ ورود الاستعراضات النصّيّة الأولى بخصوص «نشطاء العصابات» في قرى الجليل الغربيّ في شهر آب ١٩٤٠ (چيلبر ١٩٩٢، ٣٢٩)، فيما لم يتمّ جمع وتركيز سجلّات الأسماء النصيّة التابعة للخدمات الإخباريّة العربية بين عامي ١٩٤٠-١٩٤١. وفي عام ١٩٤١ بدأ المستشرق والعامل في القسم السياسيّ لدى الوكالة اليهوديّة، يعقوب شمعوني، بمتابعة تصنيف وترتيب المواد التي روكمت حتّى ذلك الوقت: تجهيز سجلّات إسميّة مركّزة، استكمال التفاصيل الناقصة، فحص موثوقيّة الموادّ وتحليل تفاصيلها. وكان الهدف من ذلك تجهيز سجلّ مرتّب من «رجال العصابات» – وفقًا للخطاب الكولونياليّ- بناءً على مناطق السكن (المصدر السابق). مع مرور الوقت، نشأت منظومة استخباراتيّة منظّمة، اعتمدت على تعبئة التفاصيل في ورقة خاصّة (الملحق رقم ٣)، واحتوت البنود التالية: الاسم الشخصي واسم العائلة، الكنية، الحمولة، تاريخ الولادة، بلد الأصل، القضاء، العنوان الشخصيّ، مكان العمل، المهنة، الدين، الطائفة، الانتماء الحزبيّ، الوضع المالي والممتلكات، وصف الشخص، منطقة تأثيره، الأقرباء، العلاقات مع السلطات، العلاقات مع

اليهود، استعراض للنشاطات (المقصد النشاطات السياسيّة أو العسكريّة أو في إطار «العصابات»).[٤٨] وقد سُميّت سجلّات الأشخاص التي وُضعت قبل قيام الدولة في الأرشيف بـ«سجلّات العصابات»، وهي مُصنّفة تحت المفاتيح: «سجلّ أعضاء العصابات» و«سجلّ أشخاص فلسطينيّين، قادة عصابات وقادة سياسيون، جزء من سجلّ أكبر». وفي بعض الأحيان تظهر المعلومات بخصوص الأشخاص الفلسطينيّين، كما أسفلنا، تحت كلمة «استطلاعات». وتشمل الاستطلاعات «تلخيصات عن قادة العصابات وشخصيّات بارزة في الوسط العربي».[٤٩] وقد صُنّفت سجلّات الأسماء والاستطلاعات وفقًا للترتيب الأبجديّ العبريّ، ورُكّزت الصور على حدة، ربما بسبب مشكلة النسخ العربي- العبريّ للأسماء، الذي أثّر على تبيّن هويّاتهم الدقيقة.[٥٠]

جمعت الخدمات الإخباريّة المعلومات الاستخباراتيّة بواسطة مخبرين يهود تلقّوا تدريبًا لهذه الغاية، ومستعربين أو فلسطينيّين تلقوا مردودًا ماليًّا. وقد جُمعت أيضًا معلومات عن أشخاص و«عصابات» في أعقاب وثائق غُنمت. فمثلا، يحوي كتاب شهادات وشخصيّات من أرشيفات العصابات العربيّة في أحداث ١٩٣٦-١٩٣٩

---

٤٨ كُتبت المعلومات عن الأشخاص بخط اليد أو بخط طباعيّ، ووصفت بشكل مختزل وقصصيّ، بهيئة رسالة أو أنّها نُظمت بشكل تسلسليّ مع إرفاق التواريخ الدقيقة. وقد كُتبت المعلومات في وثيقة خصوصيّة جُهّزت سلفًا. ورغم وجود مكان في الوثيقة لصورة باسبورت، إلّا أنّ هذه الصور لم تُرفق إلّا نادرًا.

٤٩ من الكتالوج المحوسب في أرشيف تأريخ الهَجَناه.

٥٠ چيلبر ١٩٩٢، ٥١٧-٥١٦.

(دنين {١٩٤٤}١٩٨١)،[٥١] معلومات نصّيّة كثيرة عن «رجال العصابات المركزيّة»، التي نشطت في تلك السنوات، وعن سبل عملها. ونُشرت في الكتاب دراسة علميّة عن فوزي القاوقجي وعبد الرحيم الحاج محمد، وتفاصيل عن «رجال عصابات» آخرين، صُنّفوا بترتيب أبجديّ، إلى جانب رسائل لـ «رجال العصابات» من تلك الفترة وشهادات مختلفة. وتوجد اليوم في أرشيف الهَـجَناه مئات الملفات النصيّة التي تتناول بالتفصيل نشاطات مقاتلين وناشطين فلسطينيّين في ضمن النضال الوطنيّ. وتوجد أيضًا صور كثيرة لفلسطينيّين شاركوا في المقاومة الفلسطينيّة. ويسمح كلّ ما تقدّم بترسيم معالم مدى ونطاق المقاومة الفلسطينيّة- ولو بشكل جزئيّ وانتقائيّ. صحيح أنّ هذه المعلومات جُمعت لغايات الاستخبارات اليهوديّة، ولذلك فإنّ توصيفها منهجيّ ومنحاز عمومًا، إلّا أنّ وجودها ووجود مصادر فلسطينيّة أخرى يُمكّننا من دراسة النشاطات الفلسطينيّة العسكريّة والأشخاص الذين شاركوا فيها.

ب. القسم التقنيّ: تحضير ملفات القرى واستطلاعات نصيّة حول البلدات الفلسطينيّة ومحيطها قبل النكبة

بُعيْد إقامة الهَـجَناه عام ١٩٢٠ بدأت جهات مختلفة بالعمل على معرفة وتوثيق الأماكن العربيّة لأغراض ميدانيّة، ومن منظورات طوبوغرافيّة وجغرافيّة ومادية ملموسة أخرى. وفي العقد الأول لم يكن نشاطه شاملًا ومنهجيًّا. ففي غالب الأحيان،

٥١ صدر الكتاب بالأصل عن دار «هَماچين هَعـقري» (١٩٤٤). لم تُنشر في هذه الطبعة أسماء المؤلفين. وفي مقدمة الطبعة الثاني يروي دنين أنّ النسخ الأصليّة من الكتاب وُزّعت بين الناشطين في المسألة، وأنّ غالبية النسخ أُتلفت. وبسبب الطلب الكبير، طُبع الكتاب بطبعتيْن إضافيّتيْن. ويقول دنين إنّهم حصلوا على غالبيّة المستندات الموصوفة في الكتاب بوساطة البريطانيّين الذين كانوا يجمعون بأنفسهم معلومات عن الفلسطينيّين واليهود.

جُمعت المعلومات في إطار رحلات لمعرفة البلد (التصويرة رقم ٨، يُنظر أيضًا إلى سلومون ٢٠٠٥)، نظّم معظمها الهَـجّناه، ومن دون توثيق وتجميع المعلومات. وقد كانت الرحلات تتّسم بطابع مدنيّ وعلميّ، وشكّلت أيضًا قصة مختلقة مقابل الجيش البريطانيّ.[٥٢] وكان أحد الأسباب الأساسيّة من وراء إهمال توثيق المناطق العربيّة في تلك السنوات، غياب قسم الاستخبارات العربيّة وجهة استخباراتيّة مركزيّة في التنظيم.

وكما أسلفنا، نشأ نوعان من توثيق البلدات الفلسطينيّة، في سنوات الأربعين، وهما يشبهان سبل جمع المعلومات المتعلقة بالفلسطينيّين:[٥٣]

١. ملفات القرى التي نشأت في القسم التقنيّ واحتوت موادّ بصريّة عن البلدات.

٢. استطلاعات نصيّة شاملة ومنهجيّة (فيما يلي: الاستطلاعات)، التي نشأت بمبادرة عزرا دنين من الخدمات الإخباريّة.[٥٤]

---

٥٢ حتى أنّ نموذج الرحلات تجذّر في داخل البيئة التربويّة والثقافيّة العبريّة. لقد كان ذلك جزءًا من منظومة الترويج الدعائيّة وهيكلة الهوية الصهيونيّة، التي تهدف إلى معرفة البلاد والارتباط بالمشروع الصهيونيّ. وقد سعى السير في طرق «الأرض الموعودة» وتعزيز الرابط المادي الملموس مع البلد «بواسطة الأرجل»، إلى الوصل بين المتنزّهين وبين تاريخ البلد والطبيعة والبيئة والأركيولوجيا والجغرافيا (درور ٢٠١١؛ افيسار ٢٠١١؛ بن يوسيف ٢٠١١، سيلع ٢٠١٧د).

٥٣ بخصوص فكرة جمع المعلومات عن البلدات والسكان الفلسطينيّين، التي بدأت بالتشكّل لدى قادة مختلفين في الهَـجّناه، سواء في القيادة العامة أم لدى الأشخاص الميدانيّين، على مستوى الأفراد أو بشكل منظم، وبخصوص قرار تحضير ملفات القرى، يُنظر إلى عيران ١٩٩٤، ٢٥-٢٧ وسلومون ٢٠٠٥. بخصوص مجمل النشاطات الاستخباراتيّة يُنظر الملحق رقم ٧.

٥٤ لا تميّز أبحاث مبكرة عن المسألة بين الطرق المختلفة التي كانت سائدة، وتتطرّق إلى هذه الاستطلاعات على أنّها «ملفات القرى» (Black & Morris 1991, 24-25, 129; Benvenisti, 2002, 70-71; Pappe 2006, 17-22). كان يوآف چيلبر أوّل من ميّز بين الاستطلاعات وملفات القرى، إلّا أنّه كتب عن طريق الخطأ أنّ الاثنتيْن جربتا على يد الخدمات الإخباريّة، وهو ينسب إليهما خطأً عدّة طرق عمل مشابهة (چيلبر ١٩٩٢، ٣٢٩-٣٣٠، ٥٢٦-٥٢٧).

٨

مصوّر غير معروف، مجموعة متنزّهين بإرشاد زئيف ڤيلنائي إلى جانب باب السامرة، سبستيا، ١٩٢٩
من مشروع «إسرائيل تظهر للعِيان»
أرشيف ياد يتسحاق بن تسڤي
ألبوم كلمان حرموني (حنتشينسكي)

تأسّس القسم التقنيّ في مطلع سنوات الأربعين من القرن العشرين، بمبادرة هيلل بيرچر، وهو منهدس مدنيّ تخصّص في الطوبوغرافيا (علم التضاريس)، وأصبح لاحقًا مرشدًا رئيسًا لعلم التضاريس في الهَـچَناه.[٥٥] وفي سنوات الأربعين تبلور مبنى القسم وسبل عمله. وشمل القسم ثلاث مجموعات نشطت على التوازي: في المجموعة الأولى أشخاص جمعوا المعلومات الميدانيّة عن البلدات الفلسطينيّة؛ والجوّالة الذين عملوا على «الرسم المنظوريّ» والتصوير الأرضيّ؛ وأفراد القسم/ المصوّرون الذين التقطوا الصور الجويّة بين عامي ١٩٤٥-١٩٤٦، بالتعاون مع شركة «أفيرون». وبدءًا من نهاية ١٩٤٦ استبدل المجموعة الأخيرة – كما أسلفنا – طيّارو قيادة الأركان لدى الپَلماح. وشملت المجموعة الثانية مُخطّطين ومختبريّين وتقنيّين وأشخاصًا حلّلوا المعلومات الواصلة من الجوّالة والمصوّرين، وأنشؤوا ملفات البلدات الفلسطينيّة. وقد نشط القسم التقنيّ وأرشيفه في قبو يقع في شارع دوف هوز ٩ في تل أبيب، وسُمّيا «السطح»، فيما كانت الورشة التقنيّة التي عمل فيها المخطّطون والمختبريّون والتقنيّون في

---

٥٥ من مواليد لودج، ١٩٠٢، لوالدين من أصل روسيّ. درس الهندسة البريّة وهاجر إلى البلد عام ١٩٣٥. بدايةً، أدخل موضوع علم التضاريس إلى الحركات الشبابيّة وبعدها إلى الهَـچَناه. في نهاية عام ١٩٣٨، ومطلع ١٩٣٩، عُيّن بيرچر مرشدًا رئيسًا لعلم التضاريس في الهَـچَناه واعتزل بعد فترة قصيرة من ذلك (١٩٤٠). وبتوصية منه عُيّن بدلًا منه تلميذه بنحاس أوپتيكمن (فيما بعد، يوئيلي. أرشيف الهَـچَناه ١٩٦/ ٥٤، ٦؛ أرشيف الجيش الإسرائيلي والجهاز الأمنيّ ٨٥٢/ ٥١، ٣٢٥؛ عيران ١٩٩٤، ١٨٨-١٩١). في عام ١٩٤٨ أوصى يوئيلي أمام قيادة الأركان/ قسم الموارد البشريّة بتعيين بيرچر في المسح وتجهيز الخرائط في قسم الهندسة التابع لسلاح البحريّة. («شهادة بنحاس يوئيلي»، أرشيف الهَـچَناه ٢٤/ ٩٠، ١٩٧٣).

شارع ماپو[٥٦] وشملت المجموعة الثالثة مرشدي علم التضاريس. وبعد إقامة دولة إسرائيل، انتفت الحاجة لمزيد من المعلومات عن البلدات، وانتقل غالبيّة أفراد القسم للعمل في خدمات الخرائط والصور (إلى أن أغلقت هي الأخرى).

المجموعة الأولى، الجوّالة وضبّاط الأخبار من السِّلاح وأفراد من الوحدات الميدانيّة، نشطوا في محيط القرى والبلدات الفلسطينيّة (يُنظر مثلا إلى التصويرة رقم ٩٦ في الجزء الكَتالوچيّ الذي نشاهد فيها الجوّالة في قرية سلمة برفقة السكّان). وقاموا بجمع وتوثيق المعطيات الطوبوغرافيّة والجغرافيّة والماديّة الملموسة الخاصّة بالبلدات. وكان استخدام التصوير لغرض جمع المعلومات مبادرة فرديّة من ضباط استخبارات مثل يتسحاك عيران (شيفر)، الذي كان مرشدًا رئيسًا في الوحدات الميدانيّة وضابطًا في لواء تل أبيب (التصويرة رقم ٩). وحين كان بين الجوّالة هُواة تصوير أو من يملكون الكاميرات – مثل إيلي دوڤدڤاني (التصويرة رقم ١٠) – أخذوا معهم الكاميرات إلى الجولات (تصويرات ١١–١٣). فعلى سبيل المثال، أُلتقطت الصور الأولى في منطقة تل أبيب بكاميرات خاصّة. ويرى عيران أنّ استخدام الكاميرات لم يبدأ قبل عام ١٩٤٥، رغم إدراك الطاقات الكامنة فيها منذ عام ١٩٤٣، عندما بدأوا بتحضير ملفات القرى وكان الأمر منوطًا بالمتحمّسين جدًا للموضوع. بعد أن أتت النتائج مُرضية، نجح عيران بإقناع يـچآل سوكنيك (يدين، لاحقًا)، الذي كان وقتها ضابط تخطيط في لواء تل أبيب، بالحصول على ميزانيّة صغيرة لاقتناء عدّة كاميرات (عيران ١٩٩٤، ٣٤–٣٣). في البداية أُقتنيت عدّة كاميرات رخيصة، ولكن مع تسلم موشيه

---

٥٦ سرب طائرات السِّلاح، تجوال وتصوير جويّ، شهادة «بْلاك»، قائد سرب سابقًا»، أرشيف الهَـچَناه، ١٩٤/ ٥؛ شهادة چاليلاه بلوتكي، ١/ ١/ ٥٧، ومقابلة معها ٢٦/ ٢/ ٢٠٠٩.

٩

مصوّر غير معروف، يتسحاق عيران، سنوات الثلاثين
مجموعة حاسه عيران، تُنشر الصورة بلطف منها

١٠

مصوّر غير معروف، إيلي دوفدفاني، ١٩٤٤
تُنشر الصورة بلطف من إيلي دوفدفاني

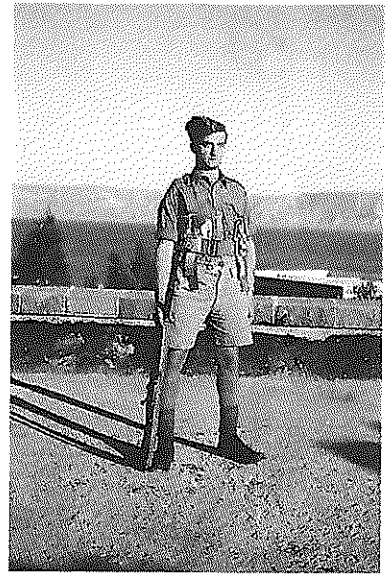

٢٩.٤.٤٩

١١

مجموعة مستطلِعين في راس العين

مجموعة إيلي دوڤدڤاني، تُنشر الصورة بلطف منه

١٢

«إعداد ملفّات قرًى»، مجموعة مستطلِعين في راس العين

مجموعة إيلي دوڤدڤاني، تُنشر الصورة بلطف منه

١٣

«١٣/ ٥/ ٤٨، يوم قبل الإصابة، قسم المستطلِعين والقنّاصة الذي أنا قائده، قُتل ٦ وأُصيب الآخرون بعد ساعتين، ١٩٤٨»

مجموعة إيلي دوڤدڤاني، تُنشر الصورة بلطف منه

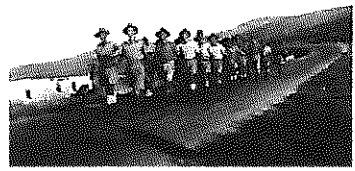

چورنيسكي (چورن، لاحقًا)[٥٧] لمهمة ضابط الجوالة الرئيس، اهتمّ باقتناء كاميرات «لايْكه» صغيرة وسريعة (المصدر السابق).[٥٨]

جرت بين الأعوام ١٩٤٧-١٩٤٣ ثلاث دورات في موضوع الجوّالة، وخُطط لدورة واحدة في موضوع التصوير. وتدلّنا هذه الدورات على الاستخدام التدريجيّ للتصوير لأغراض استخباراتيّة. ومنذ دورة الجوّالة الأولى عام ١٩٤٣، التي جرت في شفيّا، عند المدخل الغربي لوادي الملح، وكانت مخصّصة لضباط الصفوف، تخلل اللقاءات عرض ملفات القرى التي احتوت على الصور. لكنّ التصوير نفسه لم يُدرّس في الدورة، بل دُرست مادة تحضير تخطيطات الرسم المنظوريّة.[٥٩] وكانت الدورة الثانية التي جرت عام ١٩٤٥ في چڤعات عداه مخصّصة لضباط الأخبار (ضباط جوّالة) وشملت درسًا من ساعتين في مسألة التصوير واستغلاله (أرشيف الهَـچناه ٨٠/ ١٥٤، ١٣). وجرت الدورة الثالثة (والأخيرة) لضباط صفوف الجوّالة عام ١٩٤٧ في كيبوتس چنيـچار، وشمل الطاقم التدريسيّ موشيه چورن ويتسحاك عيران وتسـڤي سيناي وعدّة جوالة ومرشدين متمرّسين مثل إفرايم بلوخ، المُكنّى «العَنز». وشملت الدورة موادّ استكماليّة في علم التضاريس، وفصلًا في موضوع التصوير الجويّ المائل لدى

---

٥٧ خرّيج دورة ضبّاط الجوّالة في شفيّا، الذي كان ضابط الجوّالة الأول في لواء حيفا، وضابط جوّالة رئيس في قيادة أركان الهَـچناه وفيما بعد اللواء موشيه چورن.

٥٨ تلقى عيران تدريباته المهنية من باروخ ليـڤين، مصوّر الخدمات الإخباريّة، ومن شريكه شيفر (اسمه الشخصيّ مجهول). وساعدهم أيضًا المصوّر فرويند من القدس (اسمه الشخصيّ مجهول).

٥٩ كان أعضاء الطاقم الذين حضّروا الدورة: المصوّر/ المخطّط سبيكتور، زيامه ديبون، زروڤبيل أربيل، فينيا (بنحاس) ڤاينشطاين ويحيعام ڤايتس، وبنحاس يوئيلي من مجال علم التضاريس. وإلى جانبهم عدّة مساعدين ورسّامو تخطيط (عيران ١٩٩٤، ٣٢).

الهَجَناه والصور الأفقيّة لدى البريطانيّين (من سلسلة PS)[60] ، وتقديرات موقف استخباراتيّة وغيرها (عيران ١٩٩٤، ٦٠-٦١).

يتطرّق برنامج «الصورة لمساعدة جولة الاستطلاع» (الملحق رقم ٢)، غير المؤرّخ والذي جهّزه على ما يبدو يتسحاك عيران لهذه الدورة، إلى الأبعاد التقنيّة للتصوير، «الظروف الأمثل للتصوير». مثال ذلك «صور المناظر الطبيعيّة والبلدات التي من المحبّذ تصويرها من أماكن مرتفعة، الأمر الذي يُسهّل على مقارنتها بخارطة التضاريس ويُقلل من حيّز المساحات الميتة (غير المرئيّة)» (أرشيف الهَجَناه ٣٤/ ٢٠٩).[61] ويُبيّن هذا البرنامج كيفيّة تصوير أغراض منعزلة؛ والتقاط صور لقطاعات كاملة (القصد لمناظر بانوراميّة، ر. س.)، «في الحالات التي لا يمكن فيها احتواء المنطقة المطلوبة كلّها في ضمن صورة واحدة، يجب ضمّها من خلال صورتيْن أو أكثر» (يُنظر إلى التصويرتيْن رقم ٨٠أ و ٨٠ب في الجزء الكَتالوچيّ)؛ كيفيّة إلصاق المنطقة: «يجب قص الصورتيْن في المكان ذاته بدقّة» (يُنظر إلى التصويرة رقم ٨٣ في الجزء الكَتالوچيّ)؛ التصوير الزخرفيّ، وهو «{...} تصوير شامل للبلدة من أجل تمكين الرائي من تمييز الأبعاد بين المباني»؛ التصوير أثناء الحركة؛ تصوير لغاية تصحيح الخارطة؛ التصوير بمساعدة الناظور؛ معالجة النيجاتيفات والصور؛ إرشادات لالتقاط صور لملف قرية؛ إرشادات لالتقاط صور لملف مدينة (المصدر السابق).

في الغالب، التقط غالبيّة الصور ضباط جمع الاستخبارات، وفقًا لتعليمات جارفة بإخفاء المعلومات الخاصّة بالمصوّر أو المختبريّ: «اهتمّ بألّا يظهر في أيّ

---

٦٠ يبدو أنّ المقصد هو Palestine Survey الذي أجراه البريطانيّون.

٦١ كلّ الاقتباسات في هذه الفقرة مصدرها هذا الملف.

مكان في الملف أو في أيّ مكان آخر في صورك أيّ ذكر لتفاصيل المصوّر أو لهوية معالج الفيلم الذي يعمل معك». في تشرين الثاني ١٩٤٦ خُطّطت دورة مكثّفة من خمسة أيّام في تل أبيب في موضوع التصوير الأرضيّ. وقد احتوت رسالة صدرت عن المهندس[٦٢] إلى الإدارات والالوية في الهَـجَناه، على معلومات بافتتاح الدورة، ومطالبة بإرسال توصيات بخصوص مرشّحين ملائمين. «هدف الدورة: تجهيز مدرّبين لتدريب الجوّالة في موضوع التصوير الأرضيّ» (أرشيف الهَـجَناه ٧٣/ ٧٣، ١٤/ ١٠/ ١٩٤٦). كان على المرشّحين أن يكونوا ضباطَ صفوف جوّالة أو مرشدين في علم التضاريس. ونحن لا نعلم ما إذا كانت الدورة قد جرت فعلًا أم لا.

وحتى إقامة الدولة، دار نقاش بين توجّهيْن: رأى التوجّه الأوّل أهميّة في التصوير الأرضيّ (التصويرة رقم ١٤)، فيما فضّل التوجّه الثاني رسومات التخطيط المنظوريّة التي وفّرت الكثير من المعلومات. فعلى سبيل المثال، يقول إفرايم بلوخ: «الملفات أصبحت بفضل ذلك {بفضل التصوير، ر. س.} أكثر بساطة وأقلّ تفسيرًا، ولذلك أصبح الجوّالة أقلّ تدريبًا. ومن لحظتها لم يكن على الشخص أن يدوّن التفاصيل كلّها ولم يتعلّم النظر والتذكّر {...} ولم تجرِ الجولات كلّها إلّا بما يلائم التعليمات، وحُلّت كلّ الإجابات بواسطة التصوير {...}. وقد عارض مرشدو الپَـلماح هذه الطريقة؛ فلدينا كان التركيز الأكبر على الإنسان: فكان عليه أن يرى ويسجّل كلّ تفصيل، وأن يتأمّل ويتعرّف ويذكر كلّ حجر وكلّ سبيل. وبعد جولات كهذه كان يصبح متمرّسًا جدًا بالمنطقة» (أرشيف الهَـجَناه ٧/ ٢٧).

---

٦٢ وُقّعت الرسالة بكنية بوعز، واسم عائلته غير معروف.

١٤

مستطلِعو «الپـلـماح»/ القسم التقنيّ، القُبِب، ١٩٤٧

أرشف الجيش الإسرائيليّ وجهاز الأمن

من ملفّات القرى التي «تمّ فحصها وفتحها بيد طاقم فتح الموادّ. تصنيفه - ج. تاريخ الفتح: ٢٩/ ٢/ ٢٠٠١»

يطرح عيران مسألة أخرى: «كانت هناك أيضًا «إيديولوجية» بخصوص أفضليّة التسجيلات على التصوير: ففيما كانت الصور «موضوعيّة» وتوثق كلّ التفاصيل، كانت تسجيلات المناظر تمنحنا القدرة على غربلة القمح من الزؤان، وإدخال الأمور المهمة فقط!» («تطوير وتطبيق التصوير البريّ في الهَـجَناه»، أرشيف الهَـجَناه ١٩٤/ ٤، ١٩٨٥). يُورد عيران في كتاب الجوّالة موقف موشيه چورن: «منذ دورة شفيّا، عندما جلسنا مُطلّين على قرية الفريديس ورسمنا تخطيطات للمناظر الطبيعيّة، سألت لماذا لا نلتقط الصور. فقد كان بوسعنا بواسطة كاميرا بسيطة للصغار أن نحضر معلومات أكبر من تلك التي في الرسم التخطيطيّ» (مقتبس لدى عيران ١٩٩٤، ٣٣). وعيران بدوره يُشير إلى أفضليّات التصوير: «يمكن في عدّة ثوانٍ تصوير أيّ موضوع، ويمكن في خلال عدّة دقائق تصوير موضوع واحد من اتّجاهات عدّة أو من أبعاد مختلفة. ومع الوقت، تعلّموا التقاط صور «منطقة» بواسطة إلصاق عدّة صور متتالية» {التصويرتان ١٥، ١٦}. كانت سرعة التنفيذ «عنصرًا حيويًّا في الحماية من جهة أمان وأمن وحدات الجوّالة في الميدان وسريّة الموضوع. في عام ١٩٤٦ شارك خيرة ضباط صفوف الجَوّالة في الـپَلماح في كريات عناقيم بدورة لأغراض التجوال» (المصدر السابق). نُفّذت مهمّة التصوير في الميدان، وتمّت بشكل سريّ، وفي الغالب تحت غطاء مجموعة متنزّهين يلتقطون صورًا للمناظر الطبيعيّة أو يلتقطون صورًا لأنفسهم ومن ورائهم المناظر (يُنظر إلى التصويرة رقم ١٤ أعلاه). في الغالب، امتنع الجوّالة عن تصوير أنفسهم. «أحيانًا جرت «إعارة» فتيات «متنزّهات» للجوّالة في جولاتهم، من أجل استكمال الغطاء المفتعل للجولات» (المصدر السابق، ٣٤). وبما أنّ هذه الجولات جرت تحت غطاء النزهات، فإنّ اصطحاب الكاميرات إلى النزهة بدا «أمرًا اعتياديا». ومع ذلك، جرت تغشية وجوه الجوّالة في

تصويرة رقم ١٥ و١٦:
مستطلِعو «البـلماح»/ القسم التقنيّ، قَطَنَة، ١٩٤٧
أرشيف الجيش الإسرائيليّ وجهاز الأمن
من ملفّات القرى التي «تمّ فحصها وفتحها بيد طاقم فتح الموادّ. تصنيفه - ج. تاريخ الفتح: ٢٩/ ٢/ ٢٠٠١»

الصورة: ١٥
٧- موقع رصد
١٢- الطريق إلى معاليه هحميشاه
(غير مرقّمة، بين ١٠ و ١٢)- موقع تصوير
١٠- مدرسة

الصورة: ١٦
١٥- بيت المختار حسين جمعة
١٦- بيت المختار إسماعيل عبد الله الخطيب
١٧ - بيت المختار محمّد عبد الله شيخة (أبو زكي)
١٨- مسجد، وإلى جانبه نبع
١٩- مكان اللقاء في أسفل الوادي

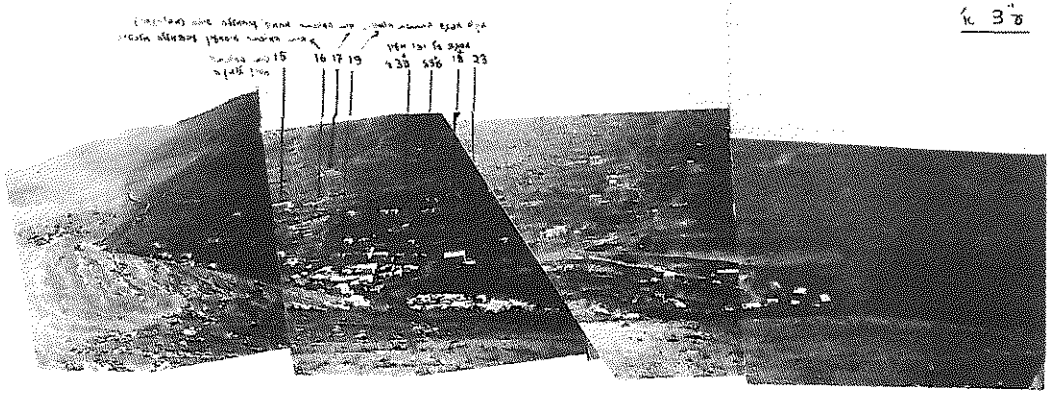

الصور: «{...} إذا لم تستطع إخفاء عملية التصوير، فقُم «بتغطيته» عن طريق تدبير تصوير رفاقك أو أشخاص محليين. في الحالة الأولى احرص على ألّا يظهر رفاقك في الصورة أبدًا، وحتى من الخلف {...} وفي حال ظهور الأشخاص في الصورة (نتيجة للإهمال) قُم بتغشيتهم على النيـچاتيـف» (الإبرازات في المصدر، ر. س.، الملحق رقم ٢، يُنظر أيضًا إلى التصويرة رقم ١٤ أعلاه). في موازاة ملف القرى، يبدو أنّه جرى أيضًا إعداد ملفات للأحياء العربيّة في المدن ثنائيّة القوميّة،[٦٣] إلى جانب تصوير الشرطة البريطانيّة ومعسكرات الجيش بواسطة «خدع مختلفة» (أرشيف الهـَچناه ١٩٤/ ٤).

في نيسان/ أيّار ١٩٤٨ صدر الكتيّب مهنة التصوير (عرَضيّ)، الذي تمحور حول التصوير بكلّ أبعاده: أسس التصوير، منظومة العدسات، عمليّة التصوير، حساب الانكشاف الضوئيّ، ظروف التصوير وغيرها. وحوى الكتيّب أيضًا مناهج تدريسيّة في التصوير (أرشيف الهـَچناه ٨٠/ ٣٣٣/ ١٧). صحيح أنّ الكتيّب صدر في نهاية الفترة التي صُوّرت فيها القرى، إلّا أنّه جُهّز على ما يبدو قبل ذلك لغرض التقاط صور للقرى. ويتطرّق أحد الفصول في الكتيّب إلى تصوير القرية وتجهيز صور المناطق وغيرها.

المجموعة الثانية التي نشطت في إطار القسم التقنيّ عملت على معالجة المواد الخام التي صُوّرت: تحميض النيـچاتيـفات، وبناء التسلسلات البانوراميّة والرسم. وشمل القسم مارچوت ساديه، زوجة يتسحاك ساديه، التي جهّزت مختبر التصوير وعملت على بناء التسلسلات (إلصاق الصور البانوراميّة)، منذ ١٩٤٦ على ما يبدو، وچرشون پلوتكين الذي درس مهنة التصوير والتصوير الشريطيّ في الولايات

٦٣ رغم عدم بقاء مثل هذه الملفات، يمكننا إدراك ذلك من خلال مستند «التصوير لمساعدة التجوال» (الملحق رقم ٢، أرشيف الهـَچناه ٣٤/ ٢٠٩)، الذي يحوي فصلًا عن «إرشادات لتصوير ملف مدينة».

المتّحدة. في البداية، عمل پلوتكين على طباعة الخرائط التضاريسيّة، وبعدها في بناء تسلسلات الصور الأرضيّة في ملفّات القرى، ونهايةً في التصوير الجويّ (١٩٤٥–١٩٤٦). وواصل پلوتكين العمل في القسم عند إقامة خدمات الخرائط والتصوير في مطلع ١٩٤٨ـ وعُيّن قائدًا لكتيبة التصوير فيها. إلى جانب ذلك، عملت چليليا پلوتكين، زوجة چرشون، في قسم رسم الخرائط (١٩٤٤– ١٩٤٧) وفي التصوير الجويّ (١٩٤٥–١٩٤٦)، وكانت أوّل مصوّرة جويّة يهوديّة. وعندما بدؤوا التصوير الجويّ عام ١٩٤٥، كان فينيك منعان هو من عالج الصور بالأساس، وباروخ لـڤين الذي ساعد في تحميض النيـچاتيـڤات– وسنأتي على ذكره لاحقًا.[٦٤]

المجموعة الثالثة– مرشدو علم التضاريس (الطوبوغرافيا). في عام ١٩٤٠، في الكتيّب الذي أصدره هيلل بيرچر وإلياهو هيرشكوڤيتس، مرشد مركزيّ في الهـَچّناه، اقترحا تحديث خرائط النزهات والرحلات بما يلائم التغييرات الميدانيّة، وتجهيز «تخطيطات» (رسومات وتخطيطات منظوريّة بالأساس) أو تصوير أمور ذات أهميّة خاصّة. واقترحا أيضًا تجهيز أربعة نماذج لجمع المعلومات التفصيليّة حول البلدات الفلسطينيّة، بما فيها الردّ على السؤال حول ما إذا كانت الصور قد أُلتقطت في المكان من قبل.[٦٥] وكان بيرچر يحاول

---

٦٤ المعلومات بخصوص المجموعة الثانية من: أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز العسكريّ ٢٣٨٤/ ٥٠، ٧، ١٦/ ١٠/ ١٩٤٨ أرشيف الهـَچّناه ٦٤/ ٣٢؛ أرشيف الهـَچّناه ١٩٤/ ٤، ٧ و«شهادة باروخ لـڤين»، أرشيف الهـَچّناه ١٣٩/ ٤، ٧.

٦٥ «من أجل وصف مبنًى أيًّا كان، يجب تسجيل موقعه وشكله وارتفاعه وعدد طوابقه وتفاصيل مميّزة أخرى. لكن، لا شكّ في أنّ الصورة الجيّدة بوسعها أن تحلّ محلّ غالبية هذه التفاصيل» (سلومون ٢٠٠٥، ١٧–١٥).

منذ النصف الثاني من سنوات الثلاثين إثارة اهتمام قيادات الهَـجَناه بأهميّة الطوبوغرافيا، ثم لقي آذانًا صاغية لدى يـجآل سوكنيك ويتسحاك ساديه، خصوصًا نتيجة للحاجة لمواجهة الثورة الفلسطينيّة التي جرت بين السنوات ١٩٣٦-١٩٣٩.[٦٦] وقال بيرچر: «مع إقامة «الكتيبة الحقليّة» شعروا لأوّل مرة بالحاجة الحقيقيّة لمعرفة التضاريس، حين بدأت وحدات وأقسام الهَـجَناه بالخروج إلى خارج الثكنات الدفاعيّة، من أجل ملاقاة العصابات في مناطقها هي. كانت الدورة الأولى لمُرشدي الطوبوغرافيا في إطار الكتيبة الحقليّة محفزًا أساسيًّا لنشر المهنة على مستوى مُرْضٍ» (بيرچر ١٩٧٨، ح). ومع أنّ القسم عمل على تجهيز الخرائط، إلّا أنّ مهمّته الأساسيّة كانت منذ ١٩٤٣ تجهيز ملفّات القرى: «اتفقنا على أنّ علينا البدء بالعمل المنهجيّ في الترسيم الخرائطيّ العسكريّ والسياسيّ والاجتماعيّ وسائر المواضيع السكّانيّة {...} والبدء ببلورة نظريّة التجوال والاستخبارات وتدريب طاقم الضباط الذي سيهتمّ بهذه المسائل» (زيامَه ديبون[٦٧] مُقتبس لدى عيران ١٩٩٤، ٢٧). وبغية بلورة المبنى المنشود، اجتمع الطاقم الذي أعدّ النموذج المعياريّ (الأنموذج) للنماذج التي ستُجهّز في الميدان على يد جوّالة يجري تأهيلهم لهذه المهمّة.[٦٨]

---

٦٦ عيران ١٩٩٤، ١٨٨-١٩٠؛ بيرچر ١٩٧٨، ٧.

٦٧ زيامَه ديبون، قائد «الكتيبة الحقليّة» وعضو مكتب الإرشاد.

٦٨ اجتمع الطاقم عدّة أسابيع ومن ضمن أعضائه: ميخائيل لـڤين، زيامَه ديبون، يحيعام ڤايس، زروڤبيل أربيل، موشيه فستيرنك- بار تكـڤاه ويوئيلي (عيران ١٩٩٤، ٣٠، ١٩٢-١٩٣).

مبنى ملفات القرى

أ. الخرائط (مقياس رسم):

١:١٠٠,٠٠٠ – لمُحيط القرية، وشملت بالأساس الطرق المُوصلة للقرية.

١:٢٠,٠٠٠ – للقرية ومحيطها الأقرب.

١:٥,٠٠٠ للقرية نفسها. وشملت ذكرًا للمباني العامّة والمنشآت الاقتصاديّة المهمة (مضخّات المياه، والطواحين وغيرها)، ومنازل القياديّين وغيرها (المصدر السابق، ٣٠-٣١). إلى جانب ذلك رُسمت أحيانًا خرائط بمقياس رسم بلغ ١:٢,٥٠٠.

ب. مواعيد الجولات والمشاركون فيها.

جـ. تفصيل لصور المنطقة (في البند المخصّص للمصوّر لم يرد اسمه).

د. صور جويّة.

هـ. أغراض وأجسام- معلومات عن مبانٍ ومصادر مياه وغيرها.

و. أخبار.

ز. معالجة عامّة (الأحرف الأولى لاسم المعالج ووقت المعالجة).

وتطرّقت التقارير إلى المبنى الطوبوغرافيّ للمكان، وكانت تلك غاية في التفصيل ووفّرت معلومات واسعة عن القرية ومنازلها ومحيطها، وهي المعلومات التي كان من المفروض أن تساعد في احتلالها مستقبلًا.[٦٩] القليل جدًا من ملفات القرى شملت معلومات نصيّة مشابهة لاستعراضات القرى. ويشكّل ملف شعفاط حالة استثنائيّة وجُهّز يوم ٢٩/ ٤/ ١٩٤٨، وشمل- على غرار الاستطلاعات- معلومات

---

٦٩ على سبيل المثال، أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز العسكريّ ٦٦١/ ٦٩، ٢٢/ ٥/ ١٥٤٧.

عن السكّان وعن شكل جاهزيّة القرية للنضال الوطنيّ، وعن المبنى الديمغرافيّ للبلدة، ومهن سكّانها، ومَن منهم ينشط في العمل الوطنيّ والعسكريّ، كمية السلاح والمدافع في القرية، وكيفيّة تحصين القرية وما شابه (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٦٦١/ ٦٩).

صُوّرت كلّ بلدة عددًا كبيرًا من المرّات، من زوايا مختلفة، بغية تحضير بنية تحتيّة معلوماتيّة شاملة ومفصّلة حول البلدة. وصُوّرت البلدات من الأرض (على سبيل المثال، التصويرة رقم ٧٩ لخُلدة في الجزء الكَتالوچيّ)، ومن ثمّ رُتّبت الصور بشكل بانوراميّ من أجل خلق منظر يكون أقرب ما يكون للواقع. وفي حالات كثيرة، أضاف الجوّالة معلومات نصيّة عن الصور لغرض تبيّن الاتجاهات في البلدة، والتسهيل على قراءتها فيما بعد. فعلى سبيل المثال، في صورة خُلدة الفلسطينيّة التي التقطت عام ١٩٤٧ (التصويرة ٨٠أ في الجزء الكَتالوچيّ)، أشير بقلم أسود عريض إلى الحيّ والطريق الموصلة إلى البئر والدكّان والطريق المؤدّية إلى الشّارع. وثمة صورة لخُلدة من العام ذاته (التصويرة رقم ٨٠ب في الجزء الكَتالوچيّ) تشير إلى المدخل الشرقيّ للبلدة، وإلى السبيل الشرقيّ. وقد رُسمت خرائط لإحكام التبيّن من الجهات والتجوال في المنطقة (التصويرة رقم ٧٨). وفي حالات مختلفة، مثل ملفات قرى بيت صفاف وقطنة والقُبب (التصاوير ١٧-١٩)، شُملت في الملفات صور جويّة إلى جانب صور أرضيّة. وقد حُفظت على حدة صور جويّة كثيرة، رغم أنها صُوّرت لغاية إعدام ملفات القرى،[٧٠] وبفضل ذلك حُفظ الكثير من الصور للكثير من البلدات الفلسطينيّة. وقد استمرّ تجهيز الملفات، على ما يبدو، حتى اندلاع الحرب عام ١٩٤٨.

---

٧٠ نقلها إلى أرشيف الهَـچَناه هيلل بيرچر. ومن المعقول أنّ هذه الحقيقة تشير إلى ضلوعه في تصويرها.

١٧

سرب «الپـلماح»/ القسم التقنيّ، القُبِب، ١٩٤٧

صورة من الجوّ

أرشيف الجيش الإسرائيليّ

من ملفّات القرى التي «تمّ فحصها وفتحها بيد طاقم فتح الموادّ. تصنيفه – ج. تاريخ الفتح: ٢٩/ ٢/ ٢٠٠١»

١٨

مستطلِعو «البـلماح»/ القسم التقنيّ، القُبِب، ٧/ ٧/ ١٩٤٧

الخارطة ١:١٢٥٠

أرشيف الجيش الإسرائيليّ

من ملفّات القرى التي «تمّ فحصها وفتحها بيد طاقم فتح الموادّ. تصنيفه – ج. تاريخ الفتح: ٢٩/ ٢/ ٢٠٠١»

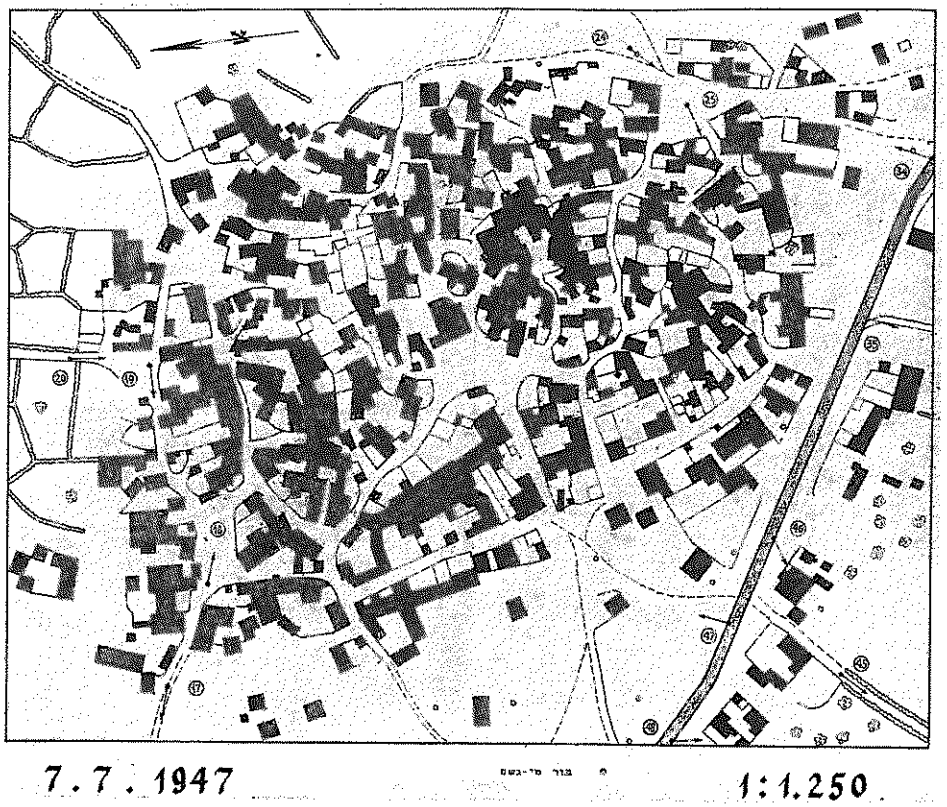

١٩

مستطلِعو «البلماح»/ القسم التقنيّ، القُبِب، ١٩٤٧

أرشيف الجيش الإسرائيليّ

من ملفّات القرى التي «تمّ فحصها وفتحها بيد طاقم فتح الموادّ. تصنيفه – ج. تاريخ الفتح: ٢٩/ ٢/ ٢٠٠١»

الاستعراضات النصيّة للبلدات الفلسطينيّة ومحيطها جرت بين ١٩٤٠ وحتى ١٩٤٨ على يد الخدمات الإخباريّة العربيّة، وكانت تختلف في طابعها عن التوثيق الوارد في ملفات القرى الذي أنجزه مكتب التخطيط. وجُهّزت ملفات القرى لغايات عملانيّة ميدانيّة، ولذلك شملت بالأساس - كما أسلفنا- معلومات طوبوغرافيّة وجغرافيّة وماديّة ملموسة: معلومات حول المباني المركزيّة في البلدة، طرق الوصول إليها، مصادر المياه، تضاريس المنطقة وما شابه. في المقابل، كانت الاستعراضات النصّيّة أكثر شمولًا وتخصّصيّة، وشملت معلومات تخصّ تشكيلة واسعة من المواضيع في المجالات الاجتماعيّة، مثل: مبنى البلدة الديمغرافيّ، تفاصيل عن المختار - عائلته ومكانته في البلدة، الحمائل الأساسيّة في البلدة وحجمها وأصلها، والعلاقات بين السكّان، مثل النزاعات والتوجّهات السياسيّة والعلاقات مع الوَقف وغيرها.

وفي المجالات الأمنيّة: السكّان الضالعون في النشاطات الوطنيّة أو العسكريّة، أبناء البلدة الذين قُتلوا في النشاطات العسكريّة أو أثناء أحداث عسكريّة.

وفي المجالات الاقتصاديّة: مصادر أرزاق أهل البلدة، أصحاب المهن الأساسيّون في البلدة، أفراد يعملون لدى الحكومة،[٧١] هل توجد تجارة في البلدة، وضع سكان البلدة الاقتصاديّ وهل تضرّروا جراء ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩.

وفي المجالات التربويّة: المدارس في البلدة، عدد الطلاب في البلدة، التحصيل العلميّ عمومًا لدى أبناء البلدة.

---

٧١ المعلومات عن الناس كانت مرفقة، عادة، بقائمة اسميّة.

معلومات تاريخيّة ومبانٍ قديمة: فترة تأسيس البلدة، مخلّفات تاريخيّة أو آثار في البلدة (الملحق رقم ٤).[٧٢]

وإلى جانب ذلك شملت الاستعراضات، أحيانًا، معطيات جغرافيّة وطوبوغرافيّة، مثل مساحة مسطّح القرية وحجمها، مصادر المياه في البلدة، الطرق المؤدّية إليها والمواصلات ومداخلها.

على مرّ السنوات جُهزّت قرابة ١,٠٠٠ استطلاع للبلدات الفلسطينيّة، ما زالت غالبيتها قائمة لليوم. وفي المقابل، فُقدت غالبية ملفات القرى التي جُهّزت بين السنوات ١٩٤٣-١٩٤٨. وفي حديث مع حيليك ليبل، الذي خدم كجنديّ في الاستخبارات بقيادة المركز بدءًا بنهاية ١٩٥٠، أخبرني بما حلّ بملفات القرى الخاصّة بالهـَجَناه، والتي كانت في عُهدته. «بعد إقامة الدولة واصلنا تجهيز ملفات القرى في مناطق العدوّ. كنتُ جوّالًا ميدانيًّا وجوّالًا جويًّا وقارئ خرائط جويّة في قيادة المركز، وتركّز نشاطنا بالأساس في الضفة الغربيّة. حافظنا على قالب ملفات القرى وتعلّمنا منهم كيفيّة تجهيز ملفات عن البلدات. ولكنّنا توقّفنا في تلك الفترة عن استخدام ملفات القرى العربيّة التي لدى الهـَجَناه، والتي كانت في نطاق إسرائيل، لأغراض استخباراتيّة. لم تكن منها أيّ فائدة، ولم ندرك أهميّتها التاريخيّة ولذلك أحرقتها... الملفات التي أحرقت وثّقت في غالبيتها القرى العربيّة التي كانت في «رواق القدس» حتى الحرب. وقد أتلفنا أيضًا النيـچاتيـڤات الخاصّة

---

٧٢ يقول شمري سلومون إنّه جرى تجهيز ٩٤٥ استطلاعًا على الأقلّ للبلدات، من بينها استطلاعات لـ ١١ مدينة وبلدة ثنائيّة القوميّة، وثلاث مدن مختلطة، و٦٢٠ قرية و٨٦ قبيلة بدويّة ومواقع سكناها (سلومون ٢٠٠١، ٧).

بالصور الجويّة. وقد بعنا يوديد الفضة التي كانت فيها من أجل توفير مصدر دخل للوحدة. أنا آسف اليوم على هذا. أنا لا أذكر ما إذا قمت بذلك وحدي أو بأمر من المسؤولين عنّي، ولكنّني أدركت سريعًا جدًا الغلطة التي ارتكبتها».[٧٣] ظلّت ٢٨ ملفًا، من بينها عشرون ملفًا في أرشيف الهـَجَناه، سبعة في أرشيف الجيش الإسرائيليّ وواحد في أرشيف السـَلماح، وهي تُبيّن شكل النشاط الذي ساعد في التعرف على البلدات الفلسطينيّة ونطاقها، وترسيم خرائطها.

جـ. القسم التقنيّ- التصوير من الجوّ

كان موشيه چورن المبادرَ لاتباع التصوير الجويّ لأغراض عملانيّة عام ١٩٤٥، الذي عُيّن في ذلك العام ضابط جوّالةٍ رئيسًا في قيادة الأركان. وقال إفرايم بلوخ إنّ «الهدف من الطريقة الجديدة {يقصد التصوير الجويّ، ر. س.} كان الانتهاء بسرعة من كلّ قرى البلاد ومدنها» (أرشيف الهـَجَناه ٧/ ٢٧). وفي البداية، استعانوا بالصور الجويّة من سلسلة PS الخاصّة بحكومة الانتداب البريطانيّ، إلّا أنّ هذه الصور كانت بمقاييس صغيرة ولم تلائم الاستخدامات التكتيكيّة. كان التصوير الجويّ مُكمّلًا للتصوير الأرضيّ،[٧٤] وجاء بشكل

---

٧٣ لقاء مع ليبل، ٥/ ٥/ ٢٠١١ ولدى سيلع ٢٠١١، Sela 2013. وقال أيضًا: «يجب أن تتذكّري أنّ فترة خدمتي كانت فترة التقشّف، وكان نقص في كلّ شيء، بما في ذلك الكرتون الذي استعملناه لتجهيز الملفات الاستخباراتيّة. لذلك استخدمت كرتونًا قديمًا كان قد استعمله أفراد الهـَجَناه في ملفات القرى قبل إقامة الدولة، من أجل الملفات الاستخباراتيّة الجديدة. أمّا ما تبقى من معلومات في ملفات القرى المختلفة: الخرائط والصور والتخطيطات وما شابه- فقد أحرقته» (المصدر السابق).

٧٤ يُنظر مثلًا إلى شهادة «بلاك»، وهو قائد سرب الطائرات السابق، أرشيف الهـَجَناه ١٩٤/ ٥.

خاص لغرض توثيق القرى من الداخل. فقد وثق الجوّالة الراجلون القرية من الخارج بالأساس، وصوّروا أطرافها (التصويرة رقم ٢٠). صحيح أنّ الجوّالة دخلوا أحيانًا القرية وصوّروا فيها تحت غطاء توثيق الرحلة (التصويرة رقم ٩٦ في الجزء الكَتالوچيّ)، إلّا أنّ التوثيق المنهجيّ للقرية من الداخل كان غائبًا في غالب الحالات: مبانيها، بيوتها، الأبعاد بين البيوت، وغيرها.

كان إفرايم بلوخ مرشدًا لدورة الجوّالة في چينيسچار في آذار ١٩٤٧، ووصف الدمج بين التصوير الأرضيّ والتصوير الجويّ: «لم نكن بحاجة للكثير من التخطيطات المرسومة والتقارير، وقد حُلّ «داخل القرية» {يقصد مشكلة جمع المعلومات الخاصة بالقرية من الداخل، ر. س.} بواسطة الصور الجويّة (أرشيف الهَـچّناه ٧/ ٢٧، ٢٥/ ١٢/ ١٩٤٩). وفي الطبعة الرابعة من كتاب طوبوغرافيا يخصّص هيلل بيرچر فصلًا لموضوع التصوير الجويّ ولأهميّته: «إنّه مصدر لأخبار واسعة، ومعطيات لاستكمال الخريطة {...} وتُستخدم الكاميرا {...} كأنها عينا الجوّال الجويّ، والجولة بواسطة التصوير الجويّ تكون مكمّلة للجولة الميدانيّة» (١٩٧٨، ١٤٧). وساعد التصوير الجويّ في التعرّف بالمناطق الفلسطينيّة وفي وضع خرائط طوبوغرافيّة لغايات عسكريّة. «التصوير يسجّل تفاصيل لمناظر طبيعيّة ذات قيمة عسكريّة ويمكن أن يخدم ذلك توجيه الأسلحة المدفعيّة؛ وهو يوفّر معطيات لرقابة واستكمال الخرائط، وحتى لوضع خرائط لمناطق لا خريطة لها» (المصدر السابق ١٤٨). ويصف بيرچر بتوسّع أفضليّات التصوير الجويّ مقابل الرسومات المنظوريّة: «التصوير {الجويّ، ر. س.} يوثق المناطق الميدانيّة بتفصيل أكبر: فتظهر فيه تفاصيل عرَضيّة أو غير

ذات أهميّة لمناظر طبيعيّة، تكون في بعض الأحيان ذات أهميّة خاصّة والخارطة لا توثّقها» (المصدر السابق، ١٤٧). وأيضًا، «التصوير يوفر صورة الوضع الأجدد، لأنّها تُجهّز خلال عدّة ساعات، فيما تكون الخارطة متخلّفة كالعادة مقابل التغييرات التي طرأت {...} وهناك أفضليّة خاصّة للتصوير الجويّ: طائرة التصوير تصل إلى مناطق لا يمكن لمسّاحي الخرائط والجوّالة الوصول إليها» (المصدر السابق؛ التصويرتان ١٧ و١٨).[٧٥]

استمرّ التصوير الجويّ خلال حرب ١٩٤٨ أيضًا[٧٦] وبعد اجتياح الجيوش العربيّة، كجزء من الجولات الجويّة التي شكّلت مصدر معلومات بخصوص انتشار الجيوش ومبنى الوحدات/ العصبات الخاصة بالجيوش العربيّة، وغيرها. وبعد تأسيس الجيش الإسرائيليّ انتقلت مسألة التصوير الجويّ إلى مسؤولية سلاح الجوّ بالتعاون مع خدمة الخرائط والتصوير (أرشيف ينحاس يوئيلي، «العلاقات بين سلاح الجوّ وبين خدمة الخرائط والتصوير في مسألة التصوير الجويّ»، ٢٨/ ٦/ ١٩٤٨).

---

٧٥ في الكتيب الذي أصدره سلاح الهندسة في كانون الأول ١٩٤٨ تحت عنوان قابلية اجتياز الأرض في العمليّات العسكريّة يظهر فصل «الحصول على معلومات عن الأرض» وفيه فقرة تتطرّق إلى التصوير الجويّ: «التصوير الجويّ يمكن أن يساعد كثيرًا في تبيّن صفات الأرض. ويمكن لتفسير هذه الصور أن يحمل أهمية في كل تخطيطات عمليات الحرب العالمية الثانية. وفيما يلي بعض الأمثلة على أخبار يمكن معرفتها من التصوير الجويّ {...}» (أرشيف الهَـجَناه ٨٠/ ٣٣٣/ ١٧، ٩). وكُتب على الكتيب بخط اليد: ترجمها عن الإنجليزيّة هـ. بيرچر. «مصطلح قابلية اجتياز الأرض {...} يعني قدرة الأرض على تحمّل الحركة العسكريّة» (أرشيف الهَـجَناه ٨٠/ ٣٣٧، ١٧).

٧٦ توقف تصوير القرى من الأرض في هذه الفترة، لأنّه لم تعد هناك حاجة لذلك، على ما يبدو.

في البداية، استخدم القسم التقنيّ طيارات شركة «أفيرون» التابعة للوكالة اليهوديّة، لغرض التصوير الجويّ (التصويرة رقم ٢٠). وقد بحث موشيه چورن عن مصوّر جويّ متمرّس وعثر على عيري چلاس من كيبوتس ياچور، الذي كان رسّامًا وهاويَ تصوير ومصورًا جويًا في الجيش الألماني أثناء الحرب العالميّة الأولى. واستجاب چلاس للمهمة، لأنّ ظروف الألمان إبان الحرب العالميّة الأولى كانت مشابهة لظروف الهَـچَناه في سنوات الأربعين. وفي لقاء شارك فيه موشيه چورن ويـچآل سوكينيك، الذي شغل منصب رئيس قسم التخطيط في قيادة الأركان وقتها، ويتسحاك عيران (التصويرة رقم ٢١أ)، تقرّر إجراء طلعة جويّة تجريبيّة بمشاركة الثلاثة والمصوّر چلاس وعمانويل تسوكربيرچ (تسور)، وهو مدرّب طيران رئيس وطيّار في شركة «أفيرون»،[٧٧] الذي سبق أن صوّر في سنوات الثلاثين بلدات فلسطينيّة من الجوّ (التصويرة رقم ٢١ب). وقد اختاروا كاميرا كوداك ٦×٩ سم التي كانت صغيرة بما يكفي لتهريبها «لأنّ هذا الأمر كان محظورًا من السلطات» (أرشيف الهَـچَناه ١٩٤/ ٤)، لكنّها مزوّدة بنيـچاتيـف كبير نسبيًا، مكّن من تكبير الصورة كثيرًا والتعرّف على التفاصيل الصغيرة فيها.

---

٧٧ تأسّست شركة «أفيرون» عام ١٩٣٦ في أعقاب الثورة الفلسطينيّة، تحت غطاء شركة تجاريّة كان الهدف منها توفير المساعدات الجويّة وإرسال المؤن والإمدادات إلى البلدات النائية في حالات الطوارئ. وقد أسّستها المؤسسات اليهوديّة قبل قيام الدولة التي كانت تخدم المهام الأمنيّة في البلدات اليهوديّة، وعليه نشطت أيضًا في تأهيل الطيارين العبريّين (عيران ١٩٩٤، ٥٤). كان عمانويل تسوكربيرچ (تسور) وآرنست راپوپورط مرشدي دورة الطيران الأولى. وفيما بعد أصبح تسوكربيرچ مرشد الطيران الرئيس لدى الهَـچَناه وقسم الطيران التابع للپلماح.

٢٠

مصوّر غير معروف، عناصر شركة أفيرون إلى جانب طائرة الشركة (عمانوئل تسور يوشفت)، النصف الثاني من سنوات الثلاثين

من طيارة كهذه صُوّرت البلدات الفِلَسطينية من الجوّ

أرشيف «الهَـجَناه»

٢١ (أ)

مصوّر غير معروف، يتسحاق عِران (على الأرض) في أثناء تدريبات طيران

مجموعة حاسه عِران، تُنشر الصورة بلطف منها

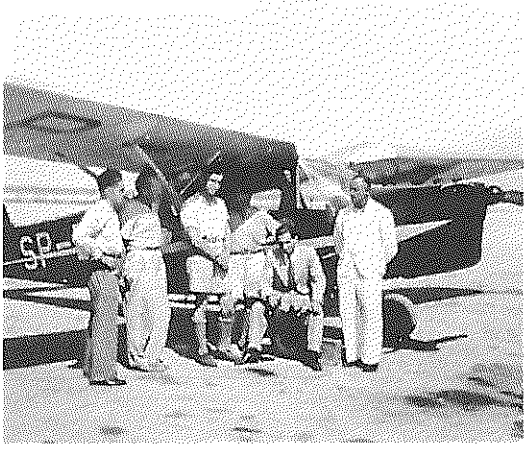

٢١ (ب)

مصوّر غير معروف (عمانوئل تسور؟)، صورة من الجوّ لمدينة اللدّ ومحيطها، ١٩٣٨-١٩٣٩

من مشروع «إسرائيل تظهر للعِيان»

أرشيف يتسحاق بن تسفي

ألبوم عمانوئل ومريام تسور

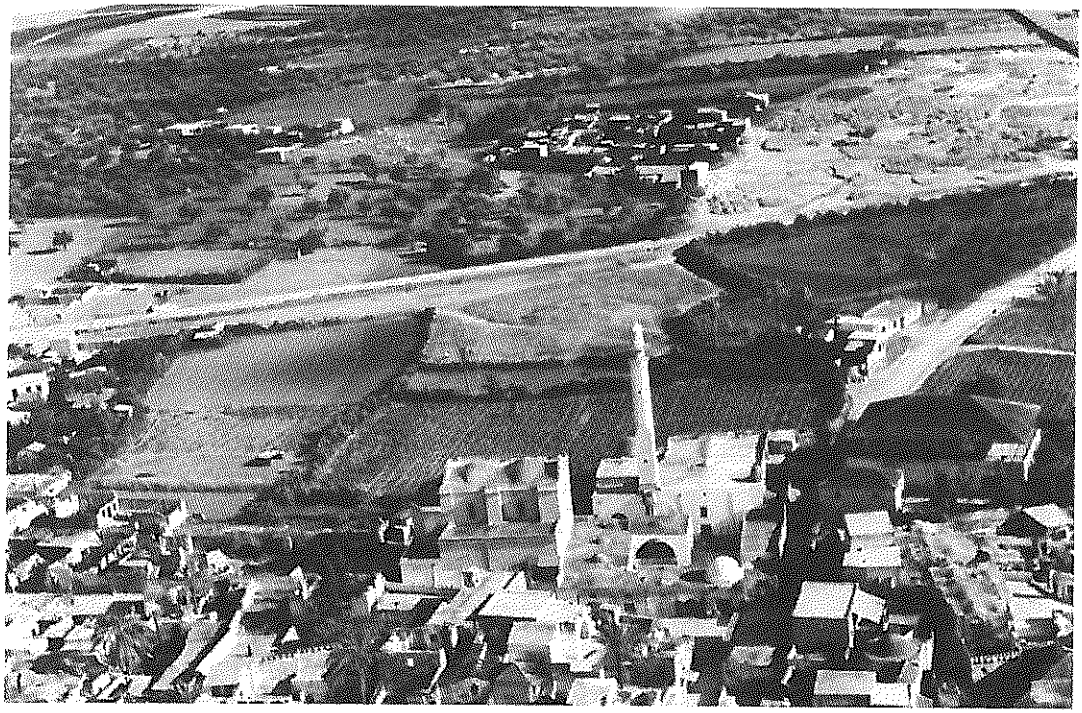

واختيرت الكاميرا رغم محدوديّاتها: الحاجة لتبديل الفيلم كلّ ثماني صور. وقد أجبرهم ذلك على إجراء تخطيط دقيق للأهداف، بحيث يكون هناك بعد كبير بين الهدف الثامن والتاسع (عيران ١٩٩٤، ٥٤-٥٥).[٧٨]

جرت الطلعات الجويّة في خط تل أبيب- حيفا، وهو خط طيران شركة «أڤيرون». كان العمل معقدًا «من الناحية التقنيّة لأنّنا لم نملك كاميرات ملائمة للتصوير من «أڤيرون»، ومن ناحية الأمان لأننا كنا مجبرين على توفير أعذار (أمام البريطانيّين، ر. س.) وأجوبة على السؤال: «لماذا تطيرون في السماء؟» (أرشيف الهَجَناه ٦٤/ ٣٢). وفي الفترة الأولى كان عيران وپلوتكين يقومان بمهمة التصوير، واصطحبا معهما شريكتيهما[٧٩] وحضروا وهم متأنّقون كي يضفوا على الطلعة الجويّة طابعًا رومانسيًا. كانت المرأتان تجيئان ومعهما حقيبتان كبيرتان لتخزين الكاميرا والأفلام (عيران ١٩٩٤، ٥٤-٥٥). وتقول چليليا پلوتكين: «رافقتهم كغطاء وبعدها بدأت بالتصوير. چرشون (پلوتكين) هو من بدأ الأمر. كنّا نصطحب ابننا ابن السنة ونصف السنة، كي نقول في حالة طرح الأسئلة إنّه يعاني الربو، وعليه أن يطير لدوافع صحيّة {...}. وفي المكتب أجرينا حسابات الارتفاعات، أي بأيّ ارتفاع نلتقط الصور، وعندما كان الطيّار يعلن وصولنا إلى الارتفاع الملائم كنتُ أخرج

---

٧٨ فيما بعد أدركوا أنّ حجم السنيچاتيف غير مهم وبدؤوا باستخدام كاميرات لايكه (المصدر السابق، ٥٥-٥٦).

٧٩ وفق شهادة زوّدني بها يوئيلي، فإنّه هو من عمل في التصوير الجويّ وكان يخبئ الكاميرا على جسمه تحت القميص أثناء الدخول إلى المطار ومغادرته (شهادة غير مؤرخة ليوئيلي أمام شالوم فريدمن).

رأسي من الشباك وأصوّر» (أرشيف الهَجَناه ٦٤/ ٣٢).[٨٠] وبما أنّهم كانوا يخشون من مراقبة الطلعات بواسطة الرادار البريطانيّ، فقد اضطرّوا للمناورة فوق الأهداف الفلسطينيّة من دون إثارة الشبهات، وقاموا أحيانًا بدورات فوق البلدات اليهوديّة أيضًا.

أقيم قسم الطيران في السِّلاح كتوسيع لنادي الطيران، الذي كان يعتمد من الناحية المهنيّة على شركة «أڤيرون».[٨١] وكان من المنطقيّ نقل التصوير الجويّ إلى عهدة سرب الطائرات التابع للسِّلاح، في ظلّ المخاوف من اكتشاف البريطانيّين للتعاون مع شركة «أڤيرون». وقد كانت لذلك أيضًا أفضليّات تقنيّة: كانت طائرات «أڤيرون» ثقيلة ولذلك لم يكن من الممكن التقاط صور أفقيّة، كانت ضروريّة من الناحية العملانيّة، إذ أنّه لم يكن من الممكن التقاط الصور الأفقيّة إلّا بواسطة تنفيذ أقصى ميلان للطائرة مع استدارة حادة فوق الهدف. أمّا في طائرات السِّلاح الخفيفة فقد كان من الممكن القيام بهذه العمليّة من دون صعوبة. يضاف إلى ذلك أنّ هذه المناورات بدت أقلّ شُبهة عند تنفيذها في طائرات نادي الطيران، قياسًا بطائرات شركة الركّاب. وكان من الممكن في طائرات السِّلاح الخفيفة فتح النافذة، فيما جرى التقاط الصور في طائرات الركّاب عبر الشباك، الأمر الذي أثّر على جودة الصور.[٨٢] وكان

---

٨٠ وأيضًا، من محادثة مع پلوتكين، ٢٦/ ٢/ ٢٠٠٩. تتضارب هذه الحقيقة مع أقوال يتسحاك عيران بأنّه لم يكن من الممكن فتح الشباك في طائرات شركة «أڤيرون» (عيران ١٩٩٤، ٥٦).

٨١ عملت الطائرات أيضًا على العثور على مهابط للطائرات عشية حرب الاستقلال (أرشيف الهَجَناه ١٩٤/ ٥).

٨٢ لا يمكن التأكد من الموضوع، بسبب ضياع الصور من الفترة السابقة.

بوسع أعضاء النادي أن يُراكموا ساعات طيران كثيرة من دون أن يضطرّوا لتفسير هذه الطلعات، أو لتفسير الدوران في الجوّ أو اختيار مسارات الطيران غير الاعتياديّة، وقد ساعدت هذه الأمور على اتخاذ قرار بنقل التصوير الجويّ إلى عهدة السِّلماح (عيران ١٩٩٤، ٥٦). وقد أسّس عيران في بيته «مدرسة التصوير الجويّ السريّ» (أرشيف الهَـجَناه ١٩٤/ ٤) ودرّب الطيّارين. وبغية إخفاء المنظومة المتطوّرة للتصوير الجويّ التي أسّسها عن أعين البريطانيّين، كانت هناك ضرورة لخطوات تمويه مختلفة: تخبئة الأفلام على الأجسام، وإلقاء الأشرطة من الجوّ فوق أهداف معيّنة بواسطة أكياس مُلئت بالرمل مسبقًا، ودفن الأفلام في جيْب سريّ في الطائرة، وتأليف قصص تمويه بخصوص أهداف الطلعات الجويّة، وتركيب جيْب سريّ للكاميرا، وغيرها.[٨٣] وكان القسم الأكبر من الصور الجويّة قد أُنجز في إطار قسم الطيران التابع للسِّلماح.[٨٤]

تُشكّل الصور الجويّة التي التقطت للبلدات الفلسطينيّة قبل عام ١٩٤٨ توثيقًا شاملًا للوجود الفلسطينيّ قبل النكبة. وهي توفّر معلومات جمّة حول الحياة النابضة في فلسطين، والانتشار الجغرافيّ الواسع قبل عام ١٩٤٨، ولذلك فهي تشكّل كذلك شاهدًا على حجم الدمار الذي حلّ بالكيان الفلسطينيّ. إنّها التوثيق الأوسع الأخير للانتشار الجغرافيّ الفلسطينيّ، وهي تُمكّن من إدراك وفهم خارطة البلد من نظرة طائر قبل النكبة. صحيح أنّ هذه الصور

---

٨٣ «شهادة «بلاك» أمام عيران يتسحاكي»، أرشيف الهَـجَناه ١٩٤/ ٥.

٨٤ يعود تأريخها إلى ما تلا عام ١٩٤٦.

اُلتقطت لغايات تتعلّق بالاحتلال الكولونياليّ ولتبيُّن الاتجاهات والحركة أثناء الاحتلال، إلّا أنّه بالإمكان اليوم عكس هذه الغايات واستخدامها لهيكلة المعرفة المتعلّقة بحياة الفلسطينيّين قبل ١٩٤٨. ويمكن بواسطتها اكتساب المعرفة بخصوص كلّ قرية وقرية: مبناها المعماريّ والجغرافيّ والطوبوغرافيّ، وكثافة السكان فيها، والزراعة فيها ومميزاتها، والطرق المؤديّة إليها، وغيرها. ومع ذلك يمكننا أن نصلَ مئات الصور الجويّة ببضعها البعض، وفقًا لموقعها على الخارطة، وهيكلة صورة مركّبة ودقيقة تحوي تقديرًا لحجم الوجود الفلسطينيّ قبل ١٩٤٨. أي أنّه بالإمكان هيكلة خارطة فوقيّة تُمكّننا من وصف الوجود الفلسطينيّ، والتركّز – حسب الحاجة- في مناطق معيّنة في أرجاء البلاد، أو وصف البلد بأكمله.[٨٥]

فضلًا عن ذلك فإنّ التمركز الاستخباراتيّ في بلدات عينيّة – قبل ١٩٤٨، أثناء ١٩٤٨ وبعد النكبة- يسمح للمشاهد بالاستدلال على طرق تفكير المحتلّ قبل وأثناء الاحتلال، لكنّه يُمكّننا أيضًا من تبيُّن قيم أخرى ذات أهميّة لتاريخ المحتلّ. فقد صُورت قرية قاقون، مثلًا، من الجوّ عام ١٩٤٧ كجزء من مشروع ملفات القرى لأهداف احتلاليّة (التصويرة رقم ٢٢). ومع احتلال القرية عام ١٩٤٨، قامت خدمات الخرائط والصور بالتقاط صور لها كجزء من توثيق النشاطات

---

٨٥ في مؤتمر منوفيم، دائرة مستديرة، يافا ٢٣ (أيلول ٢٠١٠)، قدّمت محاضرة تحت عنوان «من التاريخ الرسميّ إلى التاريخ البصريّ البديل أو: الخارطة المفقودة في كتب المدنيّات والجغرافيا- قضية حرب ١٩٤٨». وفي هذه المحاضرة طرحت أول مرة فكرة بناء خارطة تشمل مجمل الصور الجويّة التي التقطتها القوات اليهوديّة في هذه السنوات. يُنظر أيضًا إلى سيلع ٢٠١٢، ٢٠١٧د.

العسكريّة (التصويرتان رقم ٢٣ و٢٤).[٨٦] ومع أنّ الفارق الزمنيّ بين هذه الصور ليس بكبير، إلّا أنّها تُمكّننا من تبيُّن الخطوات الاحتلاليّة والتخطيط المسبق للاحتلال. مثال آخر هو قرية المجدل: فقد صُوّرت من الجوّ كتحضير لمواجهة مستقبليّة ولاحتلالها (التصويرة رقم ٢٥)، وفي أثناء طرد سكّانها (التصويرة رقم ٢٦) وبعد احتلالها (مشاهد الدّمار، التصويرة رقم ٢٧). صحيح أنّ استراتيجيّة التصوير «قبل الاحتلال وبعد الاحتلال» تعكس الغايات الكولونياليّة من وراء هذه الصور والاستخدام الواعي و«الحكيم» لها، إلّا أنّها تُمكّننا - في الوقت ذاته- من هيكلة ومراكمة المعرفة المتعلّقة بتأريخ القرى الفلسطينيّة قبل وبعد النكبة، وعلى مسار النكبة نفسها.

إلى جانب ذلك، أُلتقطت الصور أيضًا للقرى التي ظلّت مأهولة بالفلسطينيّين بعد النكبة ليعيش سكّانها تحت الحكم العسكريّ، وجرى ذلك قبل احتلالها لغايات بناء ملفات القرى. وقد كان جليًّا أنّ هذه الصور ستشكّل يومًا ما بنية تحتيّة لغايات السيطرة ومراقبة السكّان كما قال چيلبر: «شكّلت المواد (ملفات القرى، ر. س.)، كذلك، بنية تحتيّة هامّة للحكم العسكريّ بعد احتلال هذه القرى» (چيلبر ١٩٩٢، ٦١٣). وعليه، واصل الجيش تعقّب هذه القرى أثناء الحكم العسكريّ أيضًا، بوسائل استخباراتيّة مختلفة كان من ضمنها التصوير.[٨٧] وتتميّز هذه الصور، كذلك، بأهميّة في توصيف تاريخ القمع الذي خضع له الفلسطينيّون.

---

٨٦ أقيمت بلدة چان ياشيه على الأراضي الجنوبيّة لقرية قاقون عام ١٩٤٩.

٨٧ الصور موجودة اليوم في أرشيف الجيش الإسرائيليّ. يُنظر مثلًا إلى تقرير عن الحكم العسكريّ المنشور في جريدة بَمَحنيه يوم ٢٠/ ١١/ ١٩٥٦، والذي يحوي صورًا التقطها أفْرَهام فيرد.

٢٢

سرب «البلماح»/ القسم التقنيّ، قاقون، شُباط ١٩٤٨

صورة من الجوّ

أرشيف «الهَـجَناه»

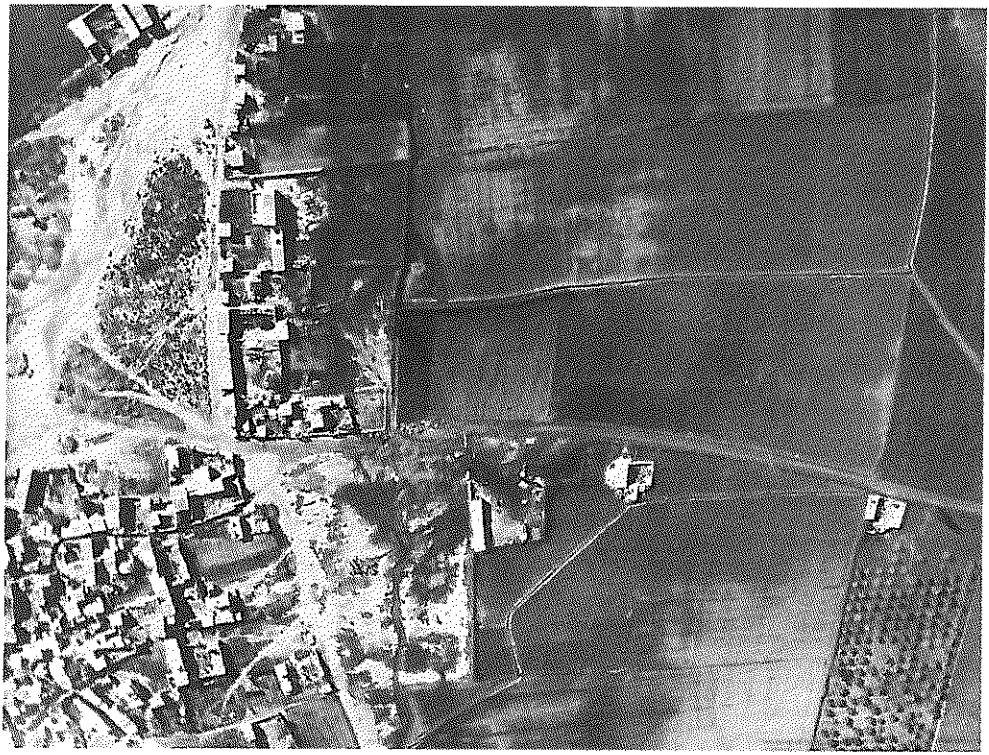

٢٣

فرِد تشسنيك، خدمة الخرائط والصور، قرية قاقون بعد احتلالها من قِبل لواء ألكسندروني، حَزيران ١٩٤٨
أرشيف الجيش الإسرائيليّ

٢٤

فرِد تشسنيك، خدمة الخرائط والصور، «اِحتلال قرية قاقون من قِبل لواء ألكسندروني، عناصر «الهَـچَناه» في الساحة»، حَزيران ١٩٤٨

أرشيف الجيش الإسرائيليّ

٢٥

سرب «البلماح»/ القسم التقنيّ، المجدل، ١٩٤٧

صورة من الجوّ

أرشيف «الهَـجَناه»

٢٦

مصوّر غير معروف، خدمة الخرائط والصور، المجدل، فِلَسطينيّون يتحادثون مع جنود إسرائيليّين، ١٩٤٨/١٠/٣٠

أرشيف الجيش الإسرائيليّ

٢٧

مصوّر غير معروف، خدمة الخرائط والصور، المجدل، «على مرأى الهدم»، ٣٠/ ١٠/ ١٩٤٨
أرشيف الجيش الإسرائيليّ

د. الخدمات الإخباريّة العربيّة- صور المقاتلين

بدأ تنظيم الهـَجَناه، ومنذ نهايات سنوات العشرين من القرن العشرين، بجمع المعلومات البصريّة حول الفلسطينيّين الذين شاركوا في النشاطات ذات الطابع القوميّ- الوطنيّ أو العسكريّ (قادة، ناشطين، مقاتلين فلسطينيين تحت التدريب، أثناء العمليّات، في الطوابير وغيرها)، وحول التنظّمات العسكريّة الفلسطينيّة، لغايات استخباراتيّة (بخصوص المصوّرين الذين عملوا لدى الخدمات الإخباريّة، يُنظر الملحق رقم ٨). الكثير من صور الفلسطينيّين الذين كانوا ضالعين في نشاطات ذات طابع عسكريّ موجودة في أرشيف الهـَجَناه، وهي تُمكّن من تبيُّن شكل عمل التصوير الاستخباراتيّ. ويصف باروخ لـڤين، مصوّر الخدمات الإخباريّة، كيفيّة استخدامه لكاميرا مينوكس لتصوير أشخاص «مشتبَهين»: فلسطينيّين إلى جانب بريطانيين أو مُنشقّين يهود. «كانت كاميرا صغيرة جدًا يمكن إخفاؤها فلا تُرى {...} وفي أوقات معيّنة كان الجوّالة وأفراد الخدمات الإخباريّة يتجهّزون بكاميرات من هذا النوع للتصوير في أماكن خطرة، واضطرّوا أكثر من مرّة لتصوير الهدف بسرعة، وإخراج الأفلام وإلقاء أو إخفاء الكاميرا على الفور» (أرشيف الهـَجَناه ١٣٩/ ٤، ٨).[٨٨] وحتى مطلع سنوات الأربعين، حُفظت هذه الصور أو صور أُخذت من مصادر فلسطينيّة لأغراض استخباراتيّة، في بيوت خاصّة، أحيانًا. ورغم أنّنا نعرف عن جمع الكثير من صور جوازات سفر خاصّة بالفلسطينيّين لغايات استخباراتيّة منذ سنوات العشرين والثلاثين، إلّا أنّنا لم نعثر على توثيق لها في أرشيف الهـَجَناه، ومن الجائز أنّ البريطانيّين

---

٨٨ قد توفر لنا هذه الحقيقة تفسيرًا حول الجودة الرديئة لبعض الصور الخاصة بالمقاتلين الفلسطينيّين، والموجودة في أرشيف الهـَجَناه وأرشيف الجيش الإسرائيليّ.

صادروها في «حملة أچاتا» (السبت الأسود، Operation Agatha). وقد شهد باروخ لـڤين بأنّه عمل سرًّا على تحميض صور أفراد العدوّ؛ ونقل صور أشخاص مشبوهين، من بينهم فلسطينيّون، الُتقطت صورهم لدى المصوّر اليهوديّ المعروف أفرَهام سوسكين؛ ونسخ صور القادة العسكريّين الفلسطينيّين التي حصلوا عليها من مركز قيادة الشرطة في القدس، مثلًا، وصور أُخذت من ألبوم المطلوبين الشرطيّ.[٨٩]

تأسّس مركز قيادة «الكتيبة الحقليّة»، والذي نشط بين الأعوام ١٩٣٧ - ١٩٣٩، في أعقاب الثورة العسكريّة- الفلسطينيّة في تلك الفترة. وبالتزامن مع ذلك، جرى تأسيس «جهاز برئاسة تسيون إلداد (بن تسيون كليمن) وحاييم كيرم (كيرمر)، اللذين جمعا المعلومات حول تحرّكات «العصابات» على طول «الخطّ الشرقيّ» في «الكتيبة الحقليّة»، الذي امتدّ بين كفار سابا وعين هشوفيط» (سلومون ٢٠٠٥، ٨). واستنادًا إلى هذا النشاط، بدأ العمل على تجهيز ملفات استخباراتيّة عن القرى والقيادات ورؤساء «العصابات»، وإن جرى ذلك بشكل جزئيّ وليس كجزء من منظومة استخباراتيّة واسعة. وفي عام ١٩٣٩ تأسّس «سلاح الحقل» (Haganah corps) مستبدلًا «الكتيبة الحقليّة»، وبدأ نشاطه في منطقة القدس، جامعًا المعلومات عن البلدات الفلسطينيّة (المصدر السابق). وعلى ما يبدو، فإنّ غالبية المعلومات التي

---

٨٩ يشهد لـڤين بخصوص صور الناس، بأنّهم قاموا أيضًا بجمع صور لمُنشقين (يهود)، أثناء عمله مع الخدمات الإخباريّة. وقد حصلوا على الصور بمختلف الطرق: فمنها ما أُخِذ بسرعة من ألبوم عائليّ وكان يتوجب تجهيز نسخة منها خلال وقت قصير (أرشيف الهَجَناه ١٣٩/ ٤، ٨). أنا أعتقد أنّ هذا الأمر كان أكثر صعوبة في حالة الفلسطينيّين، ولذلك فإنّ غالبيتها أتت من مصادر حكوميّة- بريطانيّة. وفي مقابلة أجريتها مع چنيزي يوم ١/ ٣/ ٢٠٠٩، شهد بأنّ قسم المطلوبين عمل أيضًا على توثيق يهود منشقّين وعرب وبريطانيّين.

جمعها هذان الجهازان قد فُقدت، إلّا أنّ نشاطهما يدلّ على اختيار نهج جمع المعلومات وتوثيقها بكلّ ما يخصّ المقاومة الفلسطينيّة، في حال اندلاع موجة من المقاومة العنيفة على نطاق واسع. وقد عثرت في أرشيف الهَـجَناه على صور كثيرة لمقاتلين فلسطينيّين من أواخر سنوات الثلاثين، نجهل حيثيّات التقاطها وأخذها، وقد جُمعت على ما يبدو لغايات استخباراتيّة. وقد كُتب على ظهر إحدى صور البورتريه: «لا شيء ضدّه» (التصويرة رقم ٢٨). وفي شهادته يقول دَنين إنّهم بدؤوا في أعقاب أحداث ١٩٣٦-١٩٣٩، بتأسيس الخدمات الإخباريّة وبجمع المعلومات حول الفلسطينيّين بشكل منظّم ومرتّب، إلى جانب التقاط الصّور. «بدأنا بتجميع صور مختلفة لناشطين عرب، ورؤساء عصابات وما شابه» (شهادة عزرا دنين، أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ١٥٤/ ٠٠٠٢٢، بلا تاريخ، التصويرة رقم ٢٩).

ومن بين الصور التي اُستخدمت لغايات استخباراتيّة ونُقلت («تبرعوا بها» باللهجة الكولونياليّة) إلى أرشيف الهَـجَناه، كانت هناك صور نقلها چرشون سلوتسكائي.[٩٠] وتوثّق هذه الصور مقاتلين فلسطينيّن (يُنظر إلى التصويرة رقم ٦ أعلاه)، وبعضها مؤرّخ بأنّه اُلتقط في أواخر سنوات الثلاثين. كان سلوتسكائي المولود في القدس عضوًا في الهَـجَناه. ويروي چالي سلوتسكائي، ابن چرشون، عن تخبئة نيـچاتيـڤات زجاجيّة بحجم ٦×٩ سم في بيتهم، كي لا يعثر عليها البريطانيّون. وتحوي هذه النيـچاتيـڤات، أساسًا، وصفًا للمقاومة الفلسطينيّة في سنوات الثلاثين، وأحداث يافا عام ١٩٣٣، وصور بورتريه لمقاتلين فلسطينيّين، ومقاتلين فلسطينيّين أثناء التدريب والعمليّات، وشهداء

٩٠ كان سلوتسكائي من سكّان رحاڤيا، ومن مواليد مطلع القرن العشرين. كلّ المعلومات عن چرشون سلوتسكائي مأخوذة من محادثات أجريتها مع چالي سلوتسكائي أثناء شباط ٢٠٠٨.

٢٨

أستوديو ونّوس (هرنات ناكشيان)، بلا عُنوان، بدون تاريخ
كُتب على ظهر الصورة: «ليس ضدّه شيء، ٨/ ٣/ ١٩٤٨»
من «ملفّات العرب في إسرائيل قبل ١٩٤٨»
أرشيف الجيش الإسرائيليّ

٢٩

مصوّر غير معروف، رسم بورتريه، بدون تاريخ
أرشيف الجيش الإسرائيليّ

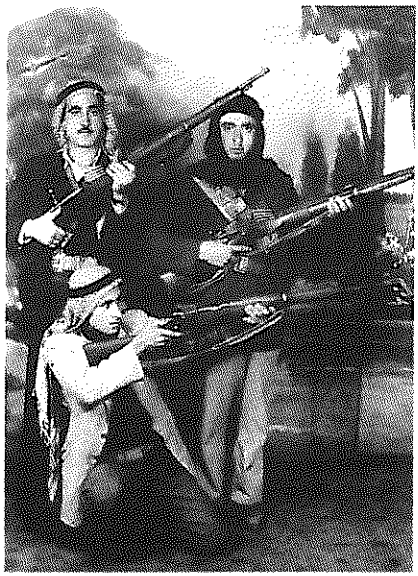

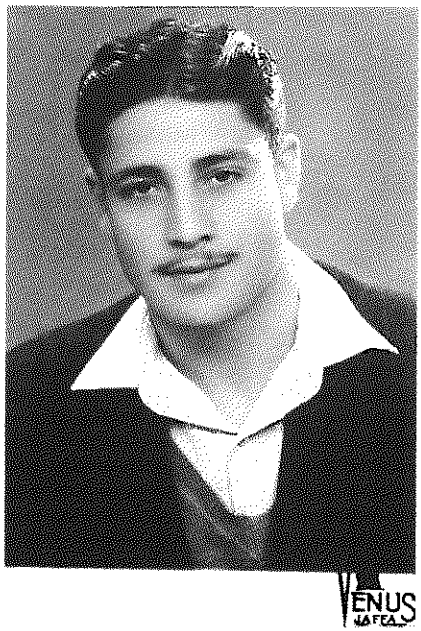

فلسطينيّين ومسيرة النبي موسى. ويدّعي چالي أنّ الكثير من هذه الصور الُتقطت عام ١٩٣٦، في حين خُبّئت النيـچاتيـقات في بيتهم على يد أفراد الهـَچَناه،[٩١] الذين استخدموا هذه الصور، على ما يبدو، كجزء من الخدمات الاستخباراتيّة. ونحن نجهل كيفيّة وصول هذه النيـچاتيـقات إلى أفراد الهـَچَناه، ومَن صوّرها، ونجهل في حالات كثيرة السنة العينيّة التي الُتقطت فيها. ومع ذلك، من المرجّح أنّ أفراد الهـَچَناه حصلوا عليها عبر ممارسة القوة، كأخذها غنيمة مثلًا، وأنها كانت تحوي معلومات مفيدة للهغناه (يُنظر إلى التصويرتيْن ٤٤ و٤٨ في الجزء الكَتالوچـيّ).

وكان هناك مصّور آخر التقط صور المقاومة الفلسطينيّة العسكريّة في أواخر سنوات الأربعين، وهو المستعرب يسرائيل نيتح، الذي كان مصوّرًا أيضًا على ما يبدو (التصويرة رقم ٣٠).[٩٢] ويقول نيتح في شهادته إنّه طلب بمعيّة صديقه محمود الحسينيّ، عام ١٩٤٧، «الانضمام إلى العصابات العربيّة التي تجوّلت في أرجاء البلد، لجمع المعلومات والتفاصيل حول أنواع الأسلحة ومخططاتها» (نيتح ٢٠٠٣، ٤٥). وهو يقول إنّه عمل لصالح الخدمات الإخباريّة بإرشاد موشيه شَريت، الذي كان رئيس القسم السياسيّ

---

٩١ يذكر چالي سلوتسكائي هذه النيـچاتيـقات في بيتهم، وأنّه كان يلعب بها. وهو لا يذكر بالضبط متى سلّمها والده إلى الأرشيف. لم يكن بالإمكان العثور على هذه المعلومة في الأرشيف أيضًا. وقد أنتج الأرشيف من النيـچاتيـقات تبييضات صغيرة للصور لفحصها(contact sheets).

٩٢ وُلد يسرائيل نيتح (بن بيطاح) في عكا عام ١٩١٨ومات في رمات جان في آب ٢٠٠٨. انتقلت عائلة وهو في العشرين للسكن في دمشق بحثًا عن لقمة العيش. في سنّ ١٣ عامًا انضمّ إلى ابن عمّه شلومو بن بيطاح وساعد في تهريب اليهود السوريّين من دمشق إلى البلاد بتكليف من الوكالة اليهوديّة. بعد ثلاثة أشهر انتقل للسكن في تل أبيب وانضمّ إلى الهـَچَناه عام ١٩٣٥. كلّ المعلومات عن يسرائيل نيتح من: نيتح ٢٠٠٣، ومن مقابلة أجريتها معه يوم ٢٧/ ٣/ ٢٠٠٨.

٣٠

يسرائيل نيتح في بيته، بضعة أشهر قبل وفاته، وفي يده ألبوم الصور الفِلَسطينية، ٢٧/ ٣/ ٢٠٠٨

تصوير: رونة سيلع

في الوكالة اليهوديّة، وبإرشاد داڤيد ريمز، وفي القدس بالتنسيق مع دوڤ يوسيف.[٩٣] ويقول نيتح الذي كان مصوّرًا هاويًا، في شهادته، إنّه تنكّر كمُصوّر صحافة عربيّة، في حين رافقه محمود «كرجل عصابات يساعده في عمله الصحافيّ» (المصدر السابق). وقد غيّر اسمه إلى إبراهيم بن إبراهيم سيّد، وهو شاب فلسطينيّ قُتل في يافا عام ١٩٤٧، وتزوّد ببطاقات مزوّرة لصحيفتي فلسطين واليوم واقتنى كاميرا من نوع كوداك. ونجح الاثنان، وفقَ ما يقول، بالتغلغل إلى «عصابات» مختلفة (عصابات عبد القادر الحسيني تحديدًا، كما يقول)، وأن يوثّق على مدار أشهر خمسة نشاطها في الخليل وجوش عتصيون ومنطقة القدس. وقد «نقلا الصور إلى أفراد الهَـجَناه الذين تساعدوا بها لدراسة الأحداث والأسلحة التي يملكها العدوّ وطرق عمله»، إلى جانب أنهما مرّرا للهغناه معلوماتٍ استخباراتيّة إضافيّة (المصدر السابق، ٥٢). وقال نيتح إنّه أتلف النيـچاتيـڤات خشية أن تُضبط، ولذلك لم يتبقَّ إلّا الصور المطبوعة.[٩٤]

---

٩٣ عمل دوڤ يوسيف مستشارًا قانونيًا لإدارة الوكالة اليهوديّة وقائمًا بأعمال رئيس القسم السياسيّ فيها. أصبح منذ ١٩٤٥ عضوًا في إدارة الوكالة ومن قياديّي الاستيطان اليهوديّ الذين اعتقلوا في اللطرون أثناء «السبت الأسود».

٩٤ لم أنجح بالعثور على معلومات إضافيّة حول نيتح في مصادر إضافيّة باستثناء المصادر الواردة في الحاشية ٩٢، والمقابلات الصحافيّة الكثيرة التي أجريت معه وتظهر في نيتح ٢٠٠٣. ظلّت غالبيّة الصور بملكيته وشاهدتها في بيته عام ٢٠٠٨. ولم تُفتح في أرشيف البَلماح إلّا أربع صور كان قد نقلها إليهم، واليوم ثمة ٨ صور منشورة في الأرشيف. يُطرح السؤال عن كيفيّة وصول الصور إلى نيتح، مع أنّه نقلها وفق شهادته إلى الهَـجَناه وتخلّص من النيـچاتيـڤات. ومن غير الواضح مصير الصور التي نُقلت إلى الهَـجَناه، ونحن لا نعرف لماذا لم ينقل إلى أرشيف البَلماح إلّا عدّة صور. بعد وفاته قام جامع فنون خاصّ بشراء الصور من عائلة نيتح، وهو غير معنيّ بالتعاون ولم يعد بالإمكان البحث في هذه المسألة.

ووفقًا لشهادة عزرا دنين، فإنّ نشاطات المستعربين بدأت هي الأخرى في أعقاب أحداث ١٩٣٦-١٩٣٩، التي حتّمت إجراء «دراسة منهجيّة على العرب، على أساس أوسع، إثنوجرافيّ وديمجرافي لعرب البلد، والبدء بتخطيط التغلغل إلى منطقة العدوّ، ومن ضمن ذلك تشغيل المستعربين» («شهادة عزرا دنين»، أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ١٥٤/ ٠٠٠٢٢، من دون تاريخ). وفي دورة الـپَلماح في مسألة التجوال العربيّ عام ١٩٤٢، تعلّم المشاركون أن يرتدوا الملابس كالعرب (سلومون، ٢٤-٢٥).[٩٥] ووفقًا لشهادات مختلفة، جرى استخدام الكاميرات أيضًا (المصدر السابق). وقد درج المستعربون أنفسهم، كذلك، على التقاط الصور لأنفسهم بملابس عربيّة، وتوجد في الأرشيفات شهادات على التنكّر لغايات عملانيّة (التصويرة رقم ٣١).

التشابه، وأحيانًا التطابق، بين صور نيتح التي وُجدت في بيته، وبين صور المصوّر الفلسطينيّ خليل رصاص تثير بعض الأسئلة. وقد شهد نيتح بأنّه قام بتحميض الأفلام في دكّان صغيرة في البلدة القديمة. ومن الممكن أنّ نيتح حمّض الأفلام في ستوديو رصاص، وحدثت بلبلة بين صوره وصور رصاص عن طريق الخطأ. أي أنّ جزءًا من الصور لنيتح والجزء الآخر لرصاص. ومن الممكن أيضًا أنّ نيتح كان مستعربًا واشترى الصور من ستوديو رصاص (التي صوّرها رصاص)، وأعطى صور رصاص للهغناه كمعلومات استخباراتيّة. إنّ وجود صور كثيرة التقطها رصاص في الأرشيفات الإسرائيليّة، من مصادر مختلفة، وختم رصاص (وكلمة copyright- تُنظر التصويرة رقم ٤٣ب) تدعم هذه الفرضيّة. وسأتطرّق لاحقًا إلى المصادر المختلفة لصور رصاص في الأرشيفات العسكريّة في إسرائيل. وحتى التصويرة رقم ٤٧ في القسم الكتالوجي تدعم هذه الفرضيّة. وقد أعطى نيتح الصورة لأرشيف الـپَلماح إلّا أنّ نسخة أخرى منها موجودة في أرشيف الهَجَناه. وهناك مكتوب أنّ الصورة التقطت بين الأعوام ١٩٣٨-١٩٤٠، أي قبل أن التقطها نيتح بكثير. وإذا كانت هذه المعلومات صحيحة فإنّ نيتح أخذ هذه الصورة من مصدر فلسطينيّ ونقلها إلى الهَجَناه لأغراض استخباراتيّة.

٩٥ ٩٢ تدّعي أوستبيلد أنّ وحدة المستعربين لم تتأسّس إلّا عام ١٩٤٦. يُنظر إلى الحاشية ٤٤ أعلاه.

٣١

مصوّر غير معروف، مستعرب (من اليسار)، على ما يبدو، في مِنطقة حيفا، ١٩٤٨

أرشيف «البـلماح»

تواصل نشاط المستعربين بعد قيام دولة إسرائيل أيضًا. وفي أرشيف البَلماح هناك تصاوير إضافيّة لمستعربين نشطوا في الدول العربيّة. مثالُ ذلك چمليئيل كوهِن، وهو في الأصل من مؤسّسي قسم المستعربين في البَلماح، ونشط كمستعرب في لبنان وأسّس هناك بنًى تحتيّة استخباراتيّة، ونقل إلى أرشيف الهَـچَناه عدّة صور التقطها يوم ١/ ٣/ ١٩٤٩ لأنطون سعادة الذي كان قائد الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ (التصويرة رقم ٤١ في الجزء الكَتالوچيّ).

في مطلع القرن العشرين تصوّر أفراد «هَشُومير» أو مهاجرون يهود وهم يرتدون ملابس السكان الفلسطينيّين المحليّين، سعيًا للتشبّه بهم ومن خلال تبنّي عاداتهم (سيلع ٢٠٠٠). وقد شكّل الفلسطينيّون وقتها رمزًا للرجل الشرقيّ الرّاسخ، المرتبط بالأرض والمكان، ابن البلد «الحقيقيّ»، «الأصيل». وتشهد صور المستعربين على التغيير الذي طرأ على التعامل مع الفلسطينيّين في المجتمع اليهوديّ. فالمقاومة الفلسطينيّة للاستيطان اليهوديّ على مرّ السنوات (١٩٢١، ١٩٢٩، ١٩٣٦-١٩٣٩) أدّت إلى تغيير تعامل الاستيطان اليهوديّ تجاه الفلسطينيّ. وحقيقة أنّ الشرق (الذي مثّله الفلسطينيّ) نزع إلى تلفُّظ ذلك الساعي إلى الاندماج فيه (اليهوديّ)، شكّلت تحوّلًا إيديولوجيًّا وأدّت إلى قطيعة مادية ملموسة وثقافيّة (تسلمونه ٢٠٠٨، ٩٤-٤٧). ومن نموذج للمحاكاة والتقليد (التنكّر الذي سعى للتشبّه بالآخر) تحوّل الفلسطينيّ إلى عدوّ، وأصبح ارتداء هندامه أداة لغايات التجسّس وجمع المعلومات. ويدّعي چيل إيال أنّ تقليد أفراد «هشومير» وأبناء الهجرة الثانية للآخر العربيّ لم يكن يهدف لإخفاء هوية المتنكّر الحقيقيّة. فالهوة بين المتشبِّه والمتشَبّه به لم تُخْفَ بل كانت شاهدًا على رغبة اليهود الأشكناز الشديدة بالاختلاط بالبلد. في المقابل، اختير

«المستعربون الجدد» من أبناء الطوائف الشرقيّة الذين نشطوا وعملوا في سنوات الأربعين، بسبب هيئتهم الخارجيّة التي مكّنتهم من التشبّه بالفلسطينيّ، والعمل سرًّا من خلال محاولة تمويه الفارق بين المتشبِّه والمتشَبّه به (إيال ٢٠٠٥، ٢٢-٤٣). وقد تحوّل التمويه في هذه الحالات إلى استراتيجيّة تهرُّب تبنّتها النظرة الحاكمة، المهيمنة، من خلال مواقف عمل سريّ. وفيما كان التمويه في الأصل استراتيجيّة اختباء من نظرة السيّد بواسطة لعب الأدوار (المحاكاة)، والعودة إلى المبدأ البصريّ والتشبّه بالتفاصيل المحيطة، والتقليد الكولونياليّ أو التحوّل إلى كائن غير محسوس بغية إبطال أفضليّة نظرة السيّد (زوهر ٢٠١٨)، فإنّ الاستعراب يعيد السيطرة على النظرة إلى السيّد الحاكم ويُعزّز علاقات القوى المتعاظمة أصلًا.

هـ. الفلسطينيّون الذين رغبوا بالعودة إلى منازلهم

توجد في أرشيف الهَـجَناه مئات الصور للفلسطينيّين، التي أزيلت من ملفات الخدمات الإخباريّة وأعيد توضيبها في سنوات التسعين تحت عنوان «صور العرب». وقد جُمعت هذه الصور بعد حرب ١٩٤٨ لغايات استخباراتيّة ويمكن تقسيمها إلى مجموعتيْن، رغم أنّها مصنّفة في الأرشيف من دون أيّ فصل. كانت مجموعة الصور الأولى مُعدّة لأغراض استخباراتيّة وهي توثّق على ما يبدو ملاحقات الأشخاص الذين شاركوا في المقاومة الفلسطينيّة أثناء حرب ١٩٤٨، ومحاولة الاستدلال على مصائرهم بعد الحرب (تُنظر التصويرة رقم ١٠٣ في الجزء الكَتالوچيّ). وقد كُتبت التفاصيل على ظهر الصور: «أمل نصر الدين {...} ووحدته في دير الشرف»؛ «وحدة أمل نصر الدين في دير الشرف»؛ «ضابط مخابرات من الكتيبة رقم ٥- أحمد أسعد برنس من قرية الطيبة. مسلم، ٢٩ عامًا، ١٦/ ٥/ ١٩٥٠، و«قاتَلَ في المنشيّة»

(تصويرة رقم ٩٩ في الجزء الكَتالوچيّ).[٩٦] تصف هذه التصاوير، غالبًا، جنودًا أثناء نشاط عسكريّ أو بالزيّ العسكريّ (وأحيانًا باللباس المدنيّ)، وهي تُمكّننا من إجراء متابعة لأشخاص قد يشاركون في المقاومة الفلسطينيّة بعد إقامة دولة إسرائيل.

وتتطرّق مجموعة الصور الثانية إلى فلسطينيّين رغبوا على ما يبدو بالعودة إلى منازلهم وأراضيهم بعد انتهاء حرب ١٩٤٨. وعلى الجهة الخلفيّة لهذه الصور، وفقما يحدث مع غالبية صور جوازات السفر، تظهر كلمة «ريمز» العبريّة. ويعود استخدام هذه الكلمة عامي ١٩٤٩-١٩٥٠ إلى «المتسلّلين»، كما سُمّوا في الخطاب العسكريّ الإسرائيليّ، وهم الفلسطينيّون الذين رغبوا بالعودة للسكن في منازلهم وبيوتهم بعد الحرب، والعودة إلى أماكن سكناهم ولمّ شمل عائلاتهم.[٩٧] ويبدو أنّ سجلّ الصور جُهّز في مطلع فترة الحكم العسكريّ، كجزء من نهج السيطرة ومراقبة السكان المدنيّين الفلسطينيّين الذين ظلّوا سكّانًا في البلد، في مواضيع السكن والعمل والمقاومة وما شابه، وتقييد عدد الفلسطينيّين الذين بوسعهم العودة.[٩٨] «عُثر» على جزء من الصّور في جيوب «المتسلّلين» (التصويرة رقم ١٠٦ في الجزء الكَتالوچيّ) وأُدخلت إلى مخزون المعلومات الاستخباراتيّ. قسم آخر من الصور أعطاها للسلطات الإسرائيليّة الفلسطينيّون أنفسهم الذين رغبوا بالعودة والسكن

---

٩٦ نحن لا نعرف لماذا يحوي أرشيف الهَـجّناه هذه الصور، وهو الأرشيف الذي يُجمّع في غالبيته موادًّ عن نشاطات الهَـجّناه إلى حين إقامة دولة إسرائيل.

٩٧ شكري ليوآف چيلبر، مؤلف كتاب جذور الزنبق، الذي ساعدني في تفسير كلمة «ريمز». من محادثة مع چيلبر يوم ٤/ ٥/ ٢٠٠٩.

٩٨ بخصوص تحضير الملفات الشخصيّة للسكّان الفلسطينيّين البالغين ومراقبتها والإشراف عليها، يُنظر أيضًا إلى كوهِن ٢٠٠٦، ١٥١-١٦٠.

في منازلهم بعد القبض عليهم، أو أنّ السلطات الإسرائيليّة التقطت صورهم. المعلومات التي تظهر على الجهة الخلفيّة لبعض الصور تثبت ذلك؛ فمثلًا: «ميري مليديس شارع هسدوت ٢٤ حيفا، حصلت على «ريمز» رقم ٢١٨٥» (التصويرة ١٠٧ في الجزء الكَتالوچيّ، وأيضًا التصاوير ١٠٢-١٠٧)، وأيضًا: «عبد الفتاح صلاح من جنين جندي مسرّح» (التصويرة رقم ١٠٢ في الجزء الكَتالوچيّ). ووفقما تقول المصادر الإسرائيليّة، فإنّ محاربة «التسلّل» كانت تشكّل محور عمل الجيش الإسرائيليّ وحرس الحدود والشرطة والحكم العسكريّ، وقد استثمرت كلّها جهودًا كبيرة لمنع عودة الفلسطينيّين إلى البلد (كوهِن ٢٠٠٦، ٨٩). وفي مقالة تتطرّق إلى الأرشيفات التي تحوي تصاوير للجسد وللوجه، يقترح سيكولا، استنادًا إلى فوكو، قراءة هذه الأرشيفات من خلال التشديد على التمثيل المزدوج الذي تحويه، وعلى الجهاز المزدوج المَبنَويّ داخلها. ويُنتج هذا الجهاز وضعًا منقسمًا ومتناقضًا، يشير من جهة إلى الذاتيّ (self) ويُبيّن من جهة أخرى طبيعة العلاقات الاجتماعيّة الاضطهاديّة المتجذّرة في تمثيل الجسد. وعليه، يقترح سيكولا تفحّص هذه الأرشيفات من خلال الإشارة إلى الطريقة الهرميّة القامعة المستترة فيها، والتي تُولّد «جسدًا اجتماعيًّا» (social body) Sekula 1986)).

يدّعي جوزيف پوچليس أنّ توثيق مظاهر العنف تتحوّل إلى أداة عنيفة بحدّ ذاتها. وفي مقالة تتطرّق إلى أرشيفات صور الجنود المعذِّبين وأولئك المعذَّبين في سجن أبو غريّب في العراق، يشير إلى فعل التصوير وإلى نتيجته الماديّة الملموسة، وهي الصورة، كجزء من المنظومات الفاشيّة التي تشهد هيئتها الخارجيّة على انتهاك لحقوق الإنسان. وهو يرى أنّ الإذلال الذي

يخضع له المعذَّب لا ينتهي مع انتهاء فعل الإذلال والإهانة، بل يستمرّ عبر عمليّة التوثيق التي تُكرّسه. وهكذا تتحوّل الكاميرا ذاتها إلى أداة تعذيب لا نهائيّة. ويشير پوچليس إلى أنّ الأرشيفات أيضًا، «أرشيفات الظلّ» بصياغة ألين سيكولا (Sekula 1986,10-11)، تتحوّل إلى جزء من المنظومة الكولونياليّة وتهيمن على تمثيلات الجسد المعذَّب. وهو يصف كيف تخضع هذه الأرشيفات للحُكم البصريّ، وكيف يجري تأطير معانيها من جديد وفق السياق الذي تُمليه منظومات القوّة المختلفة (Pugliese 2007).

و. الفلسطينيّون والقرى الفلسطينيّة في مرآة التصوير الدعائيّ العسكريّ

في عام ١٩٤٨ بلغ التوثيق التصويريّ العسكريّ اليهودي/ الإسرائيليّ ذروته، مع إقامة خدمات الخرائط والصور ومع تحويل جريدة بَمَحْنيه إلى الجريدة الرسميّة للجيش الإسرائيليّ. وفيما يلي سأستعرض باقتضاب نشاطات هذيْن الجسميْن والموقف الذي فرضاه بما يخصّ الفلسطينيّين بعد الحرب. وبما أنّ نشاطهما كان في مجال الدعاية الترويجيّة الرسميّة، فقد كان لشكل توصيف الفلسطينيّين والأحداث الواقعة وزن كبير في هيكلة الوعي الجمعيّ في المجتمع الإسرائيليّ. فعلى سبيل المثال، وفّرت خدمات الخرائط والصور صورًا لمكتب الصحافة الحكوميّ الذي كان مسؤولًا عن الدعاية الرسميّة في الجانب الشرقيّ، ونشرت الصور على نطاق واسع في كلّ البلدات الإسرائيليّة، وعملت على إنتاج أفلام سينمائيّة كما سأبيّن لاحقًا. وعليه، شكّل هذان الجسمان وكيلًا رسميًا إضافيًّا أثّر على كيفية رؤية الإسرائيليّين لمواضيع ذات أبعاد أخلاقيّة غاية في الأهميّة، مثل النكبة والتطهير العرقيّ والسيطرة على الممتلكات والأراضي الفلسطينيّة، والسلب وما شابه.

و١. خدمات الخرائط والصور

تأسّست خدمات الخرائط والصور في نيسان ١٩٤٨، ونشطت لمدّة سنة وعدة أشهر، وتمحور عملها حول التصوير لغايات عسكريّة والتوثيق والدعاية الترويجيّة. وقد تخصّصت في ثلاثة أنواع رئيسة من التصوير: التصوير البريّ، التصوير الجويّ (بالتعاون مع سلاح الجوّ) وتصوير الأفلام (تصوير سينمائيّ)، إلى جانب تأسيسها لأرشيف مركزيّ للتصوير.[٩٩] وقد تأسست «الخدمات» بمبادرة وبرئاسة ينحاس يوئيلي، تحت مسؤولية قسم العمليّات في الهـَجَناه. وبعدها انتقلت «الخدمات» إلى الجيش الإسرائيليّ بجانب خدمات الاستخبارات العسكريّة.[١٠٠] وفي مستند معنون بـ«خدمات الخرائط والصور»،

---

٩٩ بهذا الخصوص، يُنظر إلى أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٢٣٨٤/ ٥٠، ٧، ١٣/ ٢/ ١٩٤٩. في مستند تحت عنوان «مقترح لمبنى خدمات الخرائط والصور» جاء: «ستعنى خدمات الخرائط والصور بكلّ ما يخصّ الجانب التقنيّ لإنجاز الصور البريّة والصور الجويّة، فكّ رموزها ومعالجتها في مختبرات التصوير» (إلى أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ١٢١/ ٥٠، ١٧٥، ٢٩/ ٣/ ١٩٤٨. لمعلومات إضافيّة عن خدمات الخرائط والصور يُنظر الملحق رقم ٩).

١٠٠ تأسس في حزيران ١٩٤٨ بقيادة أيسار باري. بخصوص تأسيس خدمات الخرائط والصور بمبادرة يوئيلي، يُنظر إلى رسالة يوئيلي ليـچآل يدين، «إقامة قسم لتوفير الصور الجويّة لأغراض التخطيط وتجهيز وتصحيح الخرائط»، ١٤/ ١/ ١٩٤٨، أرشيف ينحاس يوئيلي. كانت خدمات الخرائط والصور مبنيّة وفق المبنى التالي: أ. مقر قيادة «الخدمات»؛ ب. كتيبة الخرائط؛ جـ. كتيبة التصوير؛ د. خلايا الخدمة. وتألفت كتيبة التصوير من ثلاثة ضبّاط: ضابط إداريّ، ضابط تصوير وضابط تصوير جويّ، و١٠٤ آخرين بدرجات مختلفة (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ١٢١/ ١٩٥، ١٧٥؛ أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ١٣٠٨/ ٥٠، ٤٢٢، ٩/ ١/ ١٩٤٩).

تظهر أهداف «الخدمات»، ومن بينها: «توفير منتظم للخرائط والصور للجيش {...} وتحضير مواد توثيقيّة حول تطوّر الجيش وأجهزته لأرشيف الحرب، وإنتاج أفلام إرشاديّة لصالح الأقسام والخدمات» (أرشيف بنحاس يوئيلي، بلا تاريخ). وعملت «الخدمات» كذلك على تصوير مقاطع (سينمائيّة) من الحرب وأحداث عسكريّة أخرى ذات صلة،[١٠١] وحتى أنّها عملت في مجال التصوير التوثيقيّ البريّ، وفق احتياجات حُدّدت سلفًا.[١٠٢]

وفي مستند تحت عنوان «صور وأفلام من خدمات الخرائط والصور»، يُوجز اللواء يسچآل يدين، رئيس قسم القيادة وقتها، مهمات القسم:

---

١٠١ وثّق القسم الحملات العسكريّة المختلفة، مثل «حملة مردخاي» (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٢٣٨٤/ ٥٠، ٧، ٢٦/ ١/ ١٩٤٩).

في تموز ١٩٤٨ اقترح المصوّر نفتالي روبنشطاين (فيما بعد أڤنون) على قائد الأركان الفريق يعكوڤ دوري، إقامة وحدة ميدانيّة لتصوير الأفلام والصور، ولكن بسبب تطابق ذلك مع خدمات الخرائط والصور، لم يُطبّق الاقتراح. في نهاية المطاف عُيّن روبنشطاين ضابطًا لقسم التصوير السينمائيّ (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ١٢١/ ٥٠، ٢٢٠، تشرين الأول ١٩٤٨، وأرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٦١٢٧/ ٤٩، ١٠٩، ٢٨/ ٧/ ١٩٤٩). كذلك، عرض المصوّر يوسيف شڤايچ خدماته على يسچآل يدين. ومن غير الواضح تمامًا ما الذي اقترحه شڤايچ، ولكن يتضح من ردّ يوئيلي أنّ من ضمن ما طلبه، توثيق الاستيطان اليهوديّ (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٢٣٨٤/ ٥٠، ٧، ١٧/ ١١/ ١٩٤٨).

١٠٢ انتشر عن طريق الخطأ أنّ خدمات الخرائط والصور لم تنشط إلّا في التصوير الجويّ. بهذا الصدد يُنظر إلى أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ١٣٠٨/ ٥٠، ٤٢٢، ٢٥/ ٣/ ١٩٤٩، ومن يوم ٣٠/ ٣/ ١٩٤٩؛ أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٢٣٨٤/ ٥٠، ٧، ٣٠/ ١/ ١٩٤٩، ومن يوم ١٤/ ١١/ ١٩٤٨.

طُلب من كتيبة التصوير التابعة لخدمات الخرائط والصور القيام بمهمات التصوير والتصوير السينمائيّ في الجيش الإسرائيليّ، على شاكلة:

أ. مهمات تصوير وتصوير سينمائيّ كتحضير للعمليّات العسكريّة (أفلام إرشاديّة، جوّالة).

ب. تصوير وتصوير سينمائيّ لعمليّات عسكريّة لأغراض الدراسة واستخلاص العبر.

ت. توثيق أحداث خاصّة تعكس حياة ونشاطات الجيش الإسرائيليّ.

ث. خدمات تصوير لوحدات الجيش المهنيّة لأغراض مهنيّة داخليّة.

ج. عمليّات تصوير وتصوير سينمائيّ لأغراض ثقافيّة وسينمائيّة (القسم الثقافيّ، المكتب الصحافيّ وغيرهما). (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٦٠٠١٣٧/ ٥١، ٤٤٧، ٣/ ١٠/ ١٩٤٨)

سعت خدمات الخرائط والتصوير لأن تكون عنصرًا مهماً في بلورة الرأي العامّ. وقد نُظر مثلًا إلى قسم إنتاج الأفلام، على أنّه تحضير وكتابة ووصف وتوليف وإدارة لـ «أفلام إرشاديّة وأفلام سيكيولوجيّة- معنويّة لسلاح الجوّ» (المصدر السابق).[١٠٣] كذلك، كان على خدمات الخرائط والتصوير أن توفّر كلّ أسبوع نحو ٣٠ نيجاتيف

---

١٠٣ جرى الحديث في مواقع أخرى عن «تجهيز مواد مصوّرة توثيقيّة وأفلام إرشاديّة» بشكل عام، وليس لصالح سلاح الجوّ تحديدًا (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ١٣٠٨/ ٥٠، ٤٢٢، ٩/ ١/ ١٩٤٩). واستخدم قسم التصوير السينمائيّ خدمات استوديوهات التصوير في إسرائيل م. ض. برئاسة مارچوت كلاوزنر لتفتيح أفلام ١٦ مم، لأنّ الجيش لم يكن يملك المعدّات التقنيّة الملائمة. في عام ١٩٥٢ اقتنى الجيش منظومة ماكينات لتفتيح أفلام ١٦ مم لصالح قسم التصوير السينمائيّ (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٦٣٦/ ٥٦، ٣٥، ٣/ ٤/ ١٩٤٩ وفي يوم ٢٨/ ١/ ١٩٥٤).

«لصور ذات قيمة دعائيّة أو ترويجيّة. وقد أرسلت هذه الأفلام، أسبوعيًّا، إلى ممثلي وزارة الدفاع في أرجاء العالم المختلفة، لأغراضهم الدعائيّة والترويجيّة» (يوئيلي لقائد أركان قسم العمليّات ٢٣٨٤/ ٥٠، ٧، ٧/ ١/ ١٩٤٩). وتقرّر أيضًا أن يقوم «قسم الدعاية الترويجيّة بتنظيم مشروع ألواح عرض دعائيّة وترويجيّة تُوضع في كلّ زاوية ملائمة في المدن والقرى. وفي كلّ عشرة أيّام تُعرض في هذه الألواح نحو عشر صور تعكس سير الحرب والجهد الحربيّ. وبلغ عدد هذه الألواح نحو مئتيّ لوح» (المصدر السابق). ونحن لا نعرف ما إذا كان هذا المشروع قد طُبّق فعلًا أم لا.

في كانون الأول ١٩٤٨ نشرت خدمات الخرائط والصور رسالة حول نيّتها تنظيم معرض تحت عنوان «سنة معارك في صُوَر». وقد خُصّص هذا المعرض للعسكريّين وللجمهور العريض، وكانت غايته «إظهار إنجازات دولة إسرائيل على مدار السنة المنصرمة» (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٢٢٨٩/ ٥٠، ٩١). إلى جانب ذلك جُهّز في ١١/ ١١/ ١٩٤٨ اقتراح «لمعرض الحرب الخاص بجيش الدفاع الإسرائيليّ» (الملحق رقم ٥). ونحن نستدلّ من الاقتراح بخصوص الخطوط الدعائيّة التي سيّرت عمل الجيش، والمضامين التي أبرزتها ودفعتها «الخدمات» (التصويرة رقم ٣٢).

١. حقّ الشعب اليهوديّ، التاريخيّ والأخلاقيّ، على أرض إسرائيل، وحقّه الأوّل والأسبق على الأرض: «أن يتعلم الزائر تقدير هذا الجيش كخليّة في ضمن سلسلة نضال شعبنا من أجل وجوده، لآلاف السنين ومنذ تشكّله كشعب» (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٩٥٧/ ٥١، ١٦، البند ٢).

٢. قلّة مقابل أكثريّة- التشديد على موتيف البطولة، والتصميم والقوّة النفسانيّة لدى الشعب اليهوديّ: «سيعكس المعرض حربنا، حرب القلّة

٣٢

خدمة الخرائط والصور، افتتاح معرِض «مصوّرون في أعقاب مقاتلين»، ١٩٤٩

أرشيف الجيش الإسرائيليّ

مقابل الكَثرة، داقيد ضدّ جوليات. وسيُبرز أفضليّة البطولة والأيمان والتفاني في مقابل الأفضليّة العدديّة والتقنيّة» (المصدر السابق، البند ٦).

٣. نشاطات الجيش في المجالات المدنيّة: «سيُبرز (المعرض) دور جيشنا في استيعاب المهاجرين الجدد وفي تأهيلهم للحياة المدنيّة الحرّة في دولتنا» (المصدر السابق، البند ٨).

٤. القدس كمكان مشتهى والقدس تحت السيادة الإسرائيليّة: «سيُخصّص مكان خاصّ للقدس (أورشليم)، غاية اشتياقات الشعب لعشرات الأجيال» (المصدر السابق، البند ١١).[١٠٤]

من خلال تأمل صور خدمات الخرائط والصّور في أرشيف الجيش الإسرائيليّ، نرى أنّ مصوّري «الخدمات» يصفون تعامل الفلسطينيّين مع الاحتلال الإسرائيليّ بشكل متعاطف ومخفّف. مثالُ ذلك صورة لجنديّ يصافح رجالاً من القرية بعد الاستسلام (التصويرة رقم ١١٤ في الجزء الكَتالوچيّ)، وصورة بورتريه جماعيّ لسكان قرية كفر قاسم مع رجال الجيش بعد الاحتلال العسكريّ (التصويرة رقم ١١٨ في الجزء الكَتالوچيّ)؛ مثل هذه الصور تُموّه علاقات الهيمنة والقمع وممارسة القوّة العسكريّة على السكان المدنيّين. السكان الفلسطينيّون وأولادهم

١٠٤ رافقت هذه الموتيفات، أيضًا، حرب حزيران ١٩٦٧، وأصبحت خطّ الدعاية الترويجيّة المركزيّ فيها (سيلع ٢٠٠٧). في يوم ١١/ ٧/ ١٩٤٩ أُفتتح في متحف تل أبيب معرض الكاميرا في أعقاب المقاتلين، ويبدو أنّ الحديث يدور عن هذا المعرض. وقد طلب مفوّض الصندوق الأميركيّ لمؤسّسات إسرائيل في نيويورك استخدام صور من المعرض لأغراض الدعاية الترويجيّة في الخارج (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٢١٦٩/ ٥٠، ١٠). لم تكن هذه المرّة الأولى التي يعرض فيها متحف تل أبيب عرضًا فنيًّا مجنّدًا. ففي عام ١٩٤٣ أقيم في المتحف معرض للسلاح والمرافق وجهة الشعب والبلد، (معرض فنيّ لكيرن هيسود)(سيلع ٢٠٠٠، ٥٢-٦٧).

والجنود- كلّهم يبتسمون أمام الكاميرا، يتعاطفون الواحد مع الآخر، فيما جرى تمويه ملابسات الصورة القاسية. وينسحب هذا على اللجوء، أيضًا. فمصوّرون مختلفون مثل بوريس كارمي (ومصوّرون آخرون لا تظهر أسماؤهم في الأرشيف) يصفون طرد السكّان الفلسطينيّين، لكن قياسًا بحجم الطرد والنفي واللجوء فإنّ عدد هذه الصور في الأرشيفات العسكريّة مُتدنٍّ، والأمر يشير إلى تنكّر المجتمع الإسرائيليّ لهذه المسألة. فمثلًا، وثق بوريس كارمي، برفقة مصوّرين آخرين، طرد أهل الرملة واللد، وتوجد في أرشيف الجيش الإسرائيليّ تصاوير مختلفة لهذا الطرد (يُنظر إلى التصويرة رقم ١٢٠ في الجزء الكَتالوچيّ). وعُثر في الأرشيفات المدنيّة، كذلك، على صور تصف التطهير العرقيّ، إلّا أنها - وكما أسلفنا- قليلة العدد نسبيًّا (مثالُ ذلك صور بينو روتنبيرچ في أرشيف الدولة). السبب المركزيّ من وراء هذا ينبع من أنّ خدمات الخرائط والصور التقطت بالأساس مواضيع يهوديّة: «الهجرة»، الاستيطان، لمّ شمل الشتات، الدفاع والبناء. وعليه، عندما التقط مصوّرو «الخدمات» صور الاستيطان اليهوديّ في داخل القرى الفلسطينيّة، التي سُمّيت تلطيفًا بالكنية الإسرائيليّة «المهجورة» (سيلع ٢٠٠٦، Sela 2009)، فإنّ هذا الأمر كان لخدمة الدعاية الترويجيّة الإسرائيليّة. وفي صندوق إسرائيل الدائم ومكتب الصحافة الحكوميّ التقطوا هم كذلك صورًا للاستيطان اليهوديّ في داخل القرى، بعد لحظةٍ من فرار سكّانها من ويلات الحرب، أو من طردهم.

ثمّة في الأرشيفات الإسرائيليّة نوعان من التمثيلات البصريّة للقرى الفلسطينيّة التي كانت ضحية للتطهير العرقيّ. الأوّل، قرًى فرغت من سكّانها وأسكنت فيها الدولة - كما تقدّم- مهاجرين يهود، والثاني لقرًى محت الدولة وجودها. وفي حرب

«الاستقلال» (١٩٤٨) هدم الجيش قرًى مختلفة، كجزء من نهج تبنّته جهات سياسيّة وأمنيّة بإبقاء الوضع على ما هو عليه، وعدم السّماح بعودة سكّانها (چولان ١٩٩٢)، وهو ما أسماه باحثون مختلفون «ترانسفير بأثر رجعيّ» (مثل چولان ١٩٩٢، ١٢٣–١٣١ وپاز ١٩٩٨، ١٠٠). إلى جانب ذلك، هدم الجيش أيضًا مناطق شاسعة من البلدة القديمة في طبريا، حيث الأحياء الفلسطينيّة التي وقعت ضحية للتطهير العرقيّ في أعقاب الحرب. أمّا في القرى التي لم تُسكن ثانية، فقد استخدمها الجيش حتى منتصف سنوات الستين لإجراء التدريبات القتاليّة في مناطق عمرانيّة (التصويرتان رقم ١٢٤ و ١٢٥ في الجزء الكَتالوچيّ). وهكذا، شكّلت القرى التي كانت تضجّ بالحياة قبل ١٩٤٨، أرضية لمواجهة مستقبليّة من طرف الجيش في قرى ذات سمات عمرانيّة مشابهة. وقد أدّى هذا النشاط العسكريّ الذي تخلله استخدام لوسائل قتاليّة حيّة ومتفجرّات، إلى جرح المشهد العمرانيّ والمفتوح، ليُخلّف وراءه النزر اليسير من النسيج الأصليّ الذي ساد هذه القرى.

في أرشيف الجيش الإسرائيليّ صور توثّق هدم القرى والنشاط العسكريّ الذي حصل في هذه القرى، وهي تُمكّننا من رؤية عمليّة الهدم المتواصل التي خضعت لها هذه القرى. وفي الفترة الممتدّة بين ١٩٦٥ وحتى ما تلا حرب حزيران ١٩٦٧، جرى تدمير القرى التي لم تُسكَن، وذلك بحملات مُدبّرة، ومن ضمنها القرى التي أُستغلّت سابقًا لغرض التدريبات. وهكذا، اختفت هذه القرى عن الوجود كي تُمحى أيضًا من الوعي العام عبر إخفاء ذكرها ومنع أيّ إمكانيّة لعودة أهلها (شاي ٢٠٠٢، سيلع ٢٠٠٦). في المقابل، فإنّ القرى التي حظيت بتوثيق واسع هي تلك القرى التي تظهر في صور الاستيطان اليهوديّ على الأراضي الفلسطينيّة بين السنوات ١٩٤٨–١٩٥٠،

وهي موجودة بالأساس - كما تقدّم- في أرشيف صندوق إسرائيل الدائم ومكتب الصحافة الحكوميّ (الذي حصل على الكثير من الصور من خدمات الخرائط والصور حين كانت ناشطة). لهذه القرى تمثيلات أخرى في أرشيف الجيش الإسرائيليّ، وهي تشير إلى وجود نهج مؤسّساتيّ جارف بتوثيق الاستيطان اليهوديّ في القرى الفلسطينيّة، من وجهة نظر يهوديّة تتنكّر للمأساة الفلسطينيّة. فعلى سبيل المثال، سعى صُنّاع فيلم البهلوان (١٩٥٣) للتصوير بجانب إحدى القرى الفلسطينيّة التي خلت من سكّانها، وحصلوا على إذن بذلك من الجيش، شريطة عدم ذكر اسم القرية.[١٠٥]

وكما سبق أن تقدّم، وثّقت الجهات الإسرائيليّة، ومن بينها الجهات العسكريّة، الاستيطان اليهوديّ في القرى الفلسطينيّة من الزاوية الإسرائيليّة- الصهيونيّة. لكن، وبنظرة استرجاعيّة، فإنّ أهميّتها تكمن في رسم ملامح شكل تبديل مجموعة من السكان بمجموعة سكّانيّة أخرى، وبتوصيف التطهير العرقيّ (سيلع ٢٠٠٦، Sela 2009).[١٠٦] هذه الصور (التصويرة رقم ٣٣) هي الشاهد الأخير على القرى الفلسطينيّة، لحظات بعد تملّكها الماديّ والقضائيّ، وقبل أن تفقد هويتها الفلسطينيّة وترتدي الهندام الإسرائيليّ. لقد أضحى سكّان القرى في عداد المفقودين، إلّا أنّ

---

١٠٥ أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٥٤٠/ ٥٥، ٩٧، ١٤/ ٩/ ١٩٥٢، وكذلك يوم ٢٥/ ٩/ ١٩٥٢. بعد أن قبل المنتجون بهذا الشرط، ساعدهم الجيش بالمعدّات أيضًا (المصدر السابق).

١٠٦ يظهر هذا الموضوع، أيضًا، في أرشيفات بوريس كارمي، وهو مصوّر عمل لصالح الجهات العسكريّة، ولدى المصوّرين الصحافيّين پاڤل چولدمن وابنه روتنبيرچ. كان كارمي واحدًا من المصوّرين العاملين لصالح جريدة بَمَحنيه. ومع بدء عمله لصالح خدمات الخرائط أعطاهم النيـچاتيـفات لقسم من صوره التي التقطها سابقًا كهديّة (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ٢١٦٩/ ٥٠، ١٠، ١٩٤٩, ٩, ١٥).

٣٣

زولتان كلوچر، «قادمون جُدُد في مستوطنة طيرة يهودا» (الطيرة)، ١/ ١٠/ ١٩٤٩

مكتب الصحافة الحكوميّ، مجموعة الصور الوطنية لإسرائيل

الكثير من الصور تحوي القرى ببيوتها وحقولها الكاملة، وهي تُمكّن من الإطلال إلى ما كُبت وقُمع في الذاكرة الجمعيّة الإسرائيليّة. ويمكننا القول إنّه وعلى خلاف قانون أملاك الغائبين ١٩٥٠،[١٠٧] الذي صادر ملكية الفلسطينيّين على أراضيهم وممتلكاتهم وسعى لمحوهم من الوعي العام، فإنّ هذه الصور تشير إلى عدم القدرة على إخفاء الحضور الفلسطينيّ، حتى بعد غياب السكّان. وفي الفترة الأولى حافظ الكثير من القرى على هويّته من جهة طابعها المعماريّ والجغرافيّ والزراعيّ، ولم تنجح الدولة في إخفاء هذه الهويّة إلّا بعد مرور الوقت (سيلع ٢٠٠٦، Sela 2009).[١٠٨] وعلى مرّ السنوات غيّرت هذه القرى نسيجها وطابعها ومميزاتها. وقد طرأت تغييرات أيضًا على الأراضي التي انتقلت إلى أيدٍ يهوديّة، في شكل استصلاح هذه الأراضي وأنواع المحاصيل ومبنى البلدة الريفيّة. وبدأ المنظر العام الذي يميّز الضواحي الزراعيّة الفلسطينيّة بالتبدّل، واكتسب مميزات استيطان الضواحي الزراعيّ الإسرائيليّ. زدْ

---

١٠٧ قانون أملاك الغائبين- ١٩٥٠ هو قانون يمنح دولة إسرائيل الملكيّة على أملاك الفلسطينيّين الذين كانوا المالكين الشرعيّين لممتلكات في المناطق التي أقيمت فيها دولة إسرائيل، وتحوّلوا ابتداءً من ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ إلى مواطنين أو رعايا وكانوا موجودين في دولة اُعتبرت دولة عدو، أو كانوا خارج نطاق إسرائيل. كذا الأمر بخصوص كلّ من ترك مكان سكنه العاديّ في إسرائيل إلى خارجها قبل يوم ١ أيلول ١٩٤٨، أو إلى مكان في أرض إسرائيل كان خاضعًا في تلك اللحظة لقوّات كانت تسعى لمنع إقامة دولة إسرائيل أو أنّها حاربتها بعد إقامتها.
نُقلت الممتلكات الفلسطينيّة إلى ملكيّة الوصيّ على أملاك الغائبين، وفي حالات كثيرة وُطّن فيها يهود، أو أنّها ظلّت بملكيّة الدولة.
https://he.wikisource.org/wiki/%D7%97%D7%95%D7%A7_%D7%A0%D7%9B%D7%A1%D7%99_%D7%A0%D7%A4%D7%A7%D7%93%D7%99%D7%9D

١٠٨ يُنظر أيضًا إلى كيدمن ٢٠٠٨.

على ذلك أنّ مقارنة الصور التي تصف الاستيطان اليهوديّ في القرى، بصور تلك القرى حين كان يسكنها الفلسطينيّون، توضح هي الأخرى، وبشكل بصريّ وبقوة كبيرة، الانكسار الذي حصل (المصدر السابق).

أُلتقطت صور الاستيطان في القرى الفلسطينيّة كجزء من جهاز الدعاية الترويجيّ في المستوطنات الصهيونيّة، التي سعت - كما ذُكر سابقا - لتوثيق الانتشار اليهوديّ في الدولة الفتيّة، وعرضه على أنّه استمرار لروح الشعب الصهيونيّة التي تمثلت بإنقاذ الأرض قبل قيام الدولة. يُضاف إلى ذلك أنّ الدولة باعت لصندوق إسرائيل الدائم، في حملة خاطفة، نحو مليون دونم من الأراضي الفلسطينيّة، من أجل الالتفاف على قرار الأمم المتّحدة الذي يسمح بعودة اللاجئين إلى بيوتهم (چولان ١٩٩٢، ١٤٩-١٥٣)، وقد شكّلت هذه الصور توثيقًا لنشاطات الدولة في توطين هذه الأراضي، وكجزء من منظومتها في العلاقات العامّة وتجنيد الأموال. ووفقًا لهذا المعتقد، فإنّ مجرّد وجود دولة إسرائيل كان مشروطًا بملكيّة يهوديّة على غالبيّة الأراضي، والسيطرة عليها وتوطينها. وبشكل تقليديّ، جرى ربط أمن الدولة بالاستيطان اليهوديّ المكثّف، وخصوصًا في مناطق التماس (أميتاي ١٩٩٨). لكنّ هذا الموقف لم يتعامل مع أيّ أسئلة أخلاقيّة، وهذه الأسئلة تنعكس بالذات في الصور التي تبدو بريئة وساذجة للوهلة الأولى. وأنا أدّعي أنّ الفلسطينيّين الغائبين عن الصور أصبحوا حاضرين بواسطة الأرض والبيوت والنباتات، فيما أنّ اليهود الذين وُطّنوا في القرى الفلسطينيّة والحاضرين في الصور، هم غرباء بشكل كبير عن الأرض والمنظر العامّ. وفي حالات كثيرة، نرى أنّ المهاجرين اليهود يرتدون ملابس بلادهم الأصليّة ولمّا يتبنّوْا الهيئة الإسرائيليّة (التصويرة رقم ٣٤). كما أنّ تلازُم مميزات إثنيّة ومعماريّة

مختلفة عن بعضها البعض في الصورة ذاتها، يشير أكثر من أيّ شيء إلى مَن كان جزءًا من المنظر وغاب عنه. وهكذا، ومن غير قصد، حوّلت الصور التي أُلتقطت لغايات إسرائيليّة، الغائبين إلى مرئيّين، والناقصين إلى حاضرين، والمنسيّين إلى رُواة الذاكرة.

ونحن نرى، كذلك، أنّ صورًا مختلفة تصف الاستيطان اليهوديّ في المباني الفلسطينيّة في المدن، مثل الصور في يافا التي تحوي: خيّاطات في الشمس، محادثة في مقهى، أمهات وأطفال. وثمة صورة ليافا بعد احتلالها بقليل من مجموعة مكتب الصحافة الحكوميّ (التصويرة رقم ٣٥)، تصف شارعًا في المدينة. ونرى المدينة بمعالمها العربيّة حاضرة، إلّا أنّ معالم السيطرة الإسرائيليّة على الحيّز بادية فيها: يافطات بالعبريّة لكُندرجيّ وطبيب ومستشفى. وتصف الصور استيعاب المهاجرين اليهود في الدولة الفتيّة على أطلال الوجود الفلسطينيّ، وهي بذلك تحوي - كما تقدّم - ميزتيْن إثنيّتيْن وجغرافيّتيْن مختلفتيْن عن بعضهما البعض جُمعتا سوية لتصبحا واقعًا جديدًا. الأولى، وهي أحياء مدينيّة وقرى فلسطينيّة بمعالمها المعماريّة والأسلوبيّة وشكل استصلاح الأراضي (في القرى)، وهي كلّها ترمز للكيان الفلسطينيّ الناقص. والثانية، المستوطنون اليهود الجدد المنشغلون في أفعال يوميّة مختلفة: الخياطة والنسيج والدراسة والعمل في الساحة واستصلاح الأراضي والبناء والتنزّه - وكلّها تأتي كرمز للحياة الطبيعيّة -ظاهريًّا- للاستيطان في هذه المناطق.

وكان هناك من رأى أنّ المساحات الفلسطينيّة الشاسعة -المدينيّة والريفيّة- هي مساحات ذات خصوصيّة وسحر شرقيّ. وكان مارسيل يانكو، وهو فنان تشكيليّ عمل في قسم البحث والاستطلاع في قسم التخطيط التابع لمكتب رئيس الحكومة، «من بين القلائل الذي اعترفوا بالإرث المعماريّ والتاريخيّ القيّم الذي ظلّ في المكان، وبالعمارة الشعبيّة الفلسطينيّة -vernacular architecture- وغضب أشدّ الغضب على التوجّه

٣٤

زولتان كلوچر، «قادمان جديدان يجلسان مع طفلهما على حقائبهم، في الميدان المركَزيّ ليهود» (يهودية/ عبّاسية)، ١٩٤٨/١٠/١

مكتب الصحافة الحكوميّ، مجموعة الصور الوطنية لإسرائيل

٣٥

زولتان كلوچر، يافا، ١١/ ١٠/ ١٩٤٨

مكتب الصحافة الحكوميّ، مجموعة الصور الوطنية لإسرائيل

الذي تبنّى هدم المنطقة».[١٠٩] وكان يانكو من ريادييّ الصراع لحفظ المدن القديمة والمباني ذات القيمة التاريخيّة والمعماريّة الشرقيّة في عكا والرملة وبيسان وصفد وطبريا وخصوصًا في يافا. وقد سعى للحفاظ على موروث البناء العربيّ وعارض هدم المدن العتيقة (يُنظر أيضًا پاز ١٩٩٨). وشارك يانكو برفقة الرسّام رؤوڤين روبين في لجنة فحص وتقييم المباني الفلسطينيّة قبل هدمها، والتي قدّمت توصياتها يوم ٢٢/ ١/ ١٩٥١. وباستثناء قيم المحافظة على الموروث المعماريّ وثقافة البناء، شدّدت اللجنة أيضًا على الدوافع الاقتصاديّة والسياحيّة: «على الجهات العاملة في السياحة الانضمام إلى مطلب الحفاظ على يافا انطلاقًا من ادعاء اقتصاديّ بخلق وتطوير مركز سياحيّ فخم... وطرأت مشكلة مشابهة أيضًا في صفد وعكا واللد والرملة وغيرها» (المصدر السابق، ١١٢).

وقد أسّس مارسيل يانكو في عين حوض قرية فنّانين انطلاقًا من هذه الدوافع. التصويرة ٣٦ تشير إلى كيفية ترميم إسرائيل للقرية الفلسطينيّة بموروث البناء فيها. إلّا أنّ هذه النشاطات كلها – في المدن والقرى– التي اهتمّت بقيم الترميم والجماليّات والثقافة امتنعت عن التطرّق إلى العنصر البشريّ والأخلاقيّ، وإلى التطهير العرقيّ وطرد سكان المكان، الذين سعوا إلى الحفاظ على موروثهم. لقد قام مارسيل يانكو بمحو السكّان الفلسطينيّين الذين سُحر بموروثهم المعماريّ، ووضع نصب عينيه مهمة تطبق الفنتازيا الاستشراقيّة الرومانسيّة بالاندماج والتوحّد مع الطبيعة. وكانت رسوماته هو وأبناء جيله، التي نزعت للتجريديّة والشّعريّة، مدماكًا إضافيًّا في المنظومة الجماليّة والإيديولوجيّة للرفض والتعامي والتمويه (لـڤين ٢٠١٤). وعلى هذا النمط جاء التمثال الخشبيّ المعاصر الذي صنعته شوشناه هيمن (التصويرة رقم

---

١٠٩ http://www.jancodada.co.il/?page_id=1263&lang=en

٣٧)، المنصوب وكأنّه متوحّد مع الطبيعة والمنظر، فيما «خرائب» عين حوض ماثلة كخلفيّة مثاليّة له. وترى الفنانة – وهي من مؤسّسي قرية الفنانين – أنّ القناطر المعماريّة العربيّة الشرقيّة تشكّل بيئة ساحرة ومتميّزة وتُسهم في تمثيل وعرض التمثال الحداثيّ الملامح، وهو عبارة عن امرأة عارية وحمامة. هيمن تصوّر التمثال وفي الخلفيّة بيوت القرية الفلسطينيّة، بعد مضيّ عام واحد على تأسيس قرية الفنّانين، وسنوات معدودة على منع عودة سكّان القرية الأصليّين. وهي تسعى لعرض كيفيّة اندماج الفن والثقافة الإسرائيليّين مع المميزات المعماريّة المحليّة، ولكن من خلال محو السكّان الذين سكنوا القرية تجاهل ضائقتهم.[١١٠] تشير الباحثة هنيدة غانم التي تناولت مصطلح «الخربة» بتوسّع، إلى أنّ هذه هي عصارة قصة السيرة الذاتيّة لجيل عبريّ عاش بعضًا من سنوات صباه من خلال النزهات إلى الخُرَب، من خلال تجاهل السكان الأصليّين الذين عاشوا حتى قبل فترة وجيزة في البلدات التي أضحت خربًا. وتدّعي غانم: عندما تحوّل السكّان الحقيقيّون إلى غير حقيقيّين، إلى مغتربين، لم يرافقهم ظلّهم، بل أضحى «ظلّ الظلّ». وهكذا، أيضًا، هدمت الصهيونيّة البيوت والقرى واستبدلت أسماءها بأسماء عبريّة توراتيّة عتيقة (غانم ٢٠١٤). وتشير آن لاورا ستولر (Stoler 2008)، هي أيضًا، إلى أنّ معالم الخرب هي معالم الدمار البادية والمستترة التي حُفرت في المناظر الطبيعيّة تحت حكم كولونياليّ محتلّ. وتقترح ستولر تحييد هذه المعالم والإشارة صوب القوى التي تنتج الخربة، من أجل مصالح سياسيّة.

---

١١٠ حاول قسم من سكّان القرية الأصليّين العودة للعيش في القرية، لكنّهم طُردوا. وقد سكنوا في مكان مجاور وأسّسوا قرية جديدة لم تعترف بها إسرائيل. وفي عام ٢٠٠٥، وبعد نضال طويل، اعترفت إسرائيل بالقرية رسميًا وفي عام ٢٠٠٦ رُبطت بشبكة الكهرباء لأوّل مرة.

٣٦

زولتان كلوچر، «قادمون من المغرب يُعدّون الخلفية لبناء بيوت سكنية في قرية عين هود» (عين حوض)، ١٩٤٩/١٠/١٧

مكتب الصحافة الحكوميّ، مجموعة الصور الوطنية لإسرائيل

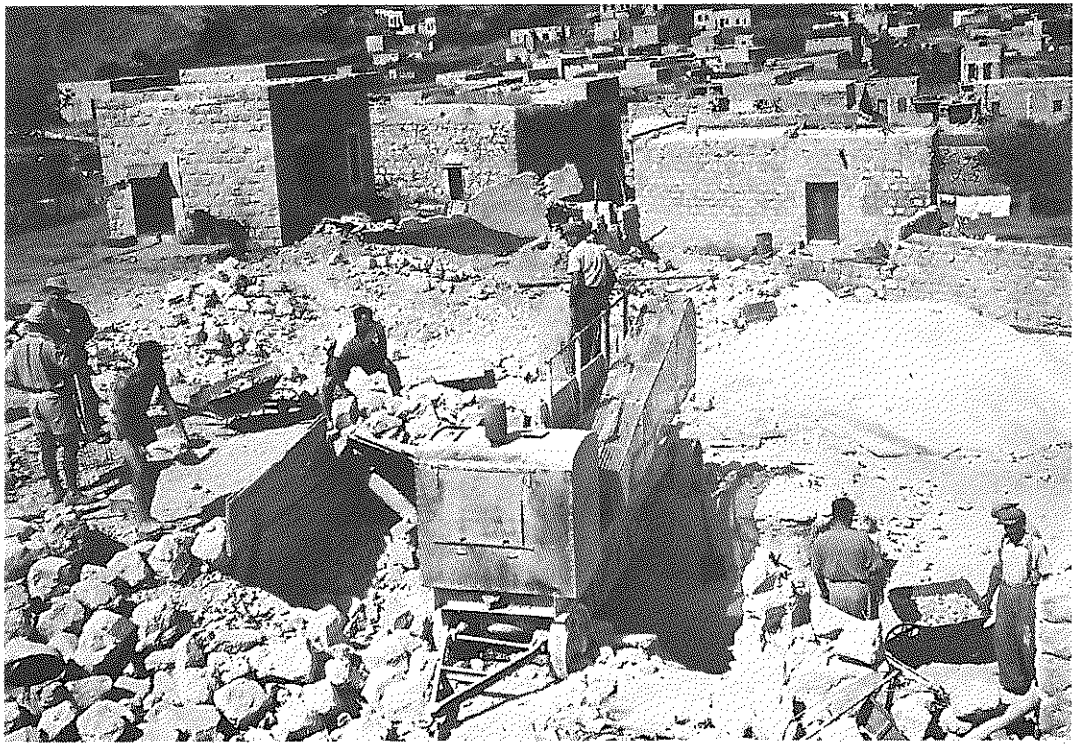

٣٧

مصوّر غير معروف، «تمثال منحوت من الخشب بيد شوشانا هايمان في قرية الفنّانين عين هود» (عين حوض)، ١٩٥٤/٥/١

مكتب الصحافة الحكوميّ، مجموعة الصور الوطنية لإسرائيل

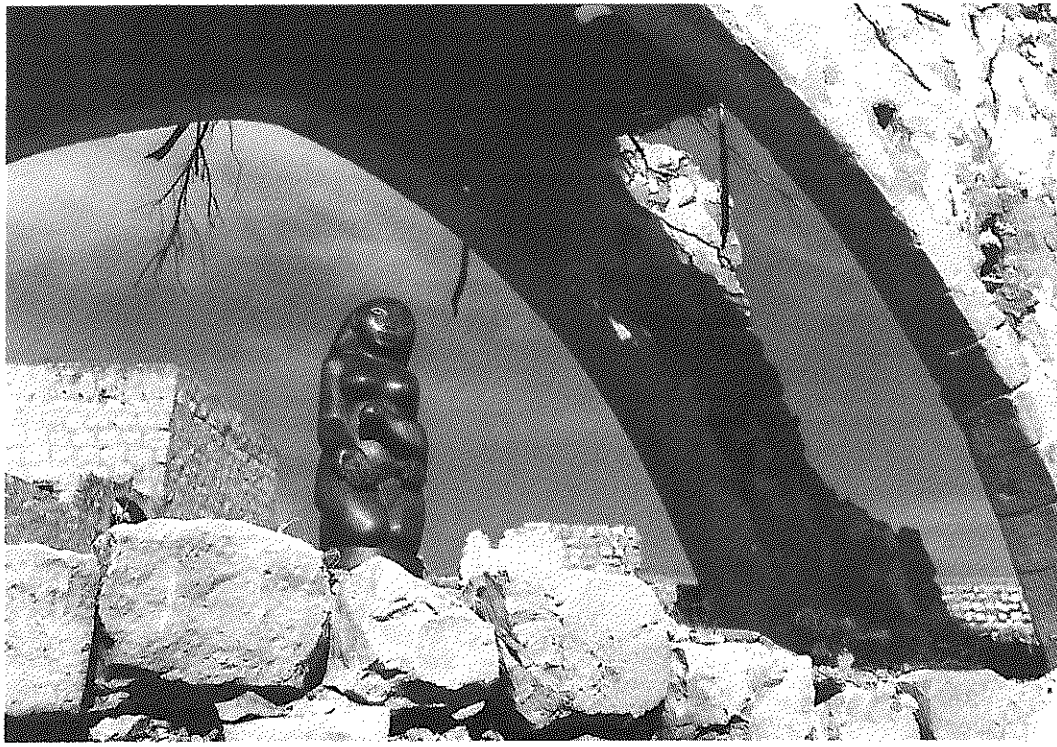

مع مرور السنوات، تعاظم الاهتمام الكولونياليّ بمدنٍ مثل يافا وحيفا وعكا، بسبب البناء العربيّ «الأصيل» (الأوثنتيك) وفق الخطاب الاستشراقيّ. وبدأ مبادرون ومهتمون بالعقارات غير المنقولة باقتناء ممتلكات من دون هذه الميزات الشرقيّة. وتحوّلت هذه الممتلكات التي أعطتها الدولة في غالب الحالات للمهاجرين اليهود مجانًا، إلى دجاجة تبيض الذهب. ورويدًا رويدًا، أخلي السكّان الأصليّون أو النازحون الفلسطينيّون، وبدلًا منهم دخلت جمعيّات يمينيّة مثل «أياليم» أو مُترَفون أغنياء للسكن هناك. ونحن نشهد تعاظمًا في عملية الترميم النخبويّ في العقد الأخير (سيلع ٢٠١٣).

و٢. جريدة بَمَحْنيه

بدأت بَمَحْنيه كمجلة أسبوعيّة سريّة تابعة لفرع الهَـحَناه في تل أبيب، وطُبعت بواسطة آلة كتابة ونُسخت باليد. وقد صدرت أول مرّة في كانون الأول ١٩٣٤، وكان محرّرها حتى عام ١٩٤٧ إفرايم تالمي. ومن بين كُتابها كان هناك شعراء وأدباء، ومنهم: نَتان ألترمان، ليئه چولدبيرچ، شراچا روبنشطاين وچيرشون حانوخ. وفي نهاية عام ١٩٤٧ أصبحت بمحنيه لسان حال تنظيم الهَـحَناه القُطريّ، وفي ١٩٤٨ لسان حال الجيش الإسرائيليّ. وحتى ١٩٤٨ صدرت بمحنيه عن طريق النَّسخ ومن دون صور. ولذلك سأتطرّق هنا للجريدة ابتداءً من عام ١٩٤٨ حين بدأ موشيه شمير بتحريرها، وأصبح البعد البصريّ فيها أمرًا مهماً. صدرت أول نسخة طباعيّة من الجريدة العسكريّة بمحنيه يوم ١٨/ ٢/ ١٩٤٨. وكان نوع التصوير الذي ميّز الجريدة بغالبيته تصويرًا لتقارير مصوّرة (ريبورتاجات).[١١١]

---

١١١ لمعلومات أخرى عن جريدة بَمَحنيه يُنظر إلى الملحق رقم ١٠.

وواصلت التقارير في جريدة بمحنيه السير في خطى ملامح الدعاية الترويجيّة الصهيونيّة التي تبلورت في النصف الأول من القرن العشرين (سيلع ٢٠٠٠). وتشمل هذه الملامح، من ضمن سائر الأمور، التنكّر لوجود الفلسطينيّين في فلسطين لفترة زمنيّة طويلة، والتشديد على حقّ الشعب اليهوديّ، التاريخيّ والأخلاقيّ، في كل ما يتصل بإبراز البلد،[١١٢] ووصف الفلسطينيّ بصورة شيطانيّة ومظلمة أو متخلّفة، أو رسم حياة الأصلانيّين وكأنّها ترقّت وارتقت في أعقاب الاحتلال ورغبتهم في الاندماج داخل المجتمع المحتلّ أو التشبّه به. وثمة الكثير من التقارير التي تجسّد ذلك: «زرنا يازور المخاتلة والفتّاكة مرات كثيرة منذ أن أطلقت الرصاصة الأولى على سيارة يهوديّة» (بَمَحنيه ب، ٣/ ٣/ ١٩٤٨)، أو «أم الفحم: قرية لصوص، قرية قطّاع طرق. أم الفحم معقل قوّة وأمن لأوكار العصابات {...} أم الفحم تعني حتى الآن: بيت القاتل؛ في أحداث ١٩٣٦/ ٩ كانت أحد مراكز العصابات التي كان نطاق نشاطها يصل بعيدًا {...} خانعون وراضون يجولون في القرى وحقولها. أحرار هم {...} القرية تتطلع لتكون إسرائيليّة بكلّ ما تملك: كلّ صباح، ولساعة كاملة، يحاضر المعلم الشاب أمام طلابه عن دولة إسرائيل الجديدة والفتيّة، وعن قوانينها وعاداتها...» (بَمَحنيه ٤١ {٦١}، ٩، ١٠/ ٦/ ١٩٤٩). وفي تقرير نُشر عام ١٩٥٠ يصف هو الآخر مصير قرية ترشيحا وفق الخطاب الكولونياليّ: «كان هناك ٥ آلاف عربيّ في ترشيحا وقد فرّوا قبل الاحتلال بوقت وجيز، ولم يظلّ في القرية سوى ٦٣ واهنًا».

---

١١٢ فعلى سبيل المثال، طلب شلومو طينيه، محرر بَمَحنيه، من قائد الأركان أن يكتب تقريرًا يصف تاريخ البلد: «عدد يوم الاستقلال سيكون غنيًّا بالزوايا والمقالات التي ستُخصّص في بعضها للتطور التاريخي لإسرائيل، منذ مغادرة مصر وحتى قيام دولة إسرائيل» (أرشيف الجيش الإسرائيليّ والجهاز الأمنيّ ١٥٥٩/ ٥٢، ١٣، ١/ ٤/ ١٩٥١). طينيه يتجاهل التاريخ والمأساة الفلسطينيّين.

ويصف الكاتب الفلسطينيّ بأنّه «واهن» ولا يتمسّك بأرضه، وهو حتى يتنكّر للوجود الفلسطينيّ: «عندما أتت إلى هنا العائلات اليهوديّة الأولى، يوم ١٦ كانون الثاني ١٩٤٩، لم يكن شيء يُذكر هنا» (بَمَحنيه ٢-٣ {١٢٦-١٢٧}، ٧/ ٩/ ١٩٥٠، ٢٠-٢١).

ويتطرّق التقرير «الحكم العسكريّ في المثلث»[١١٣] إلى السكّان الفلسطينيّين الذين بقوْا في إسرائيل وعاشوا تحت الحكم العسكريّ. ويصف التقرير الحكم العسكريّ ومهامه وتعامل الفلسطينيّين معه بتعاطف وإيجابيّة. وهو يموّه جوهره المرتبط بالسيطرة الكولونياليّة التامّة على حياة السكّان وتقييد حركتهم وإخضاعهم للنظام الإسرائيليّ وانتهاك حقوقهم المدنيّة، وطرد الفلسطينيّين الذين حاولوا العودة والعيش في بيوتهم وبلداتهم، وبمنع عودة النازحين إلى قراهم، وتخصيص الأراضي الفلسطينيّة لليهود، والاعتقالات الإداريّة وغيرها.[١١٤] ويصف التقرير بشكل ملطّف الورطة التي وجد الفلسطينيّون أنفسهم فيها، إذ كانوا بحاجة إلى وساطة الحاكم العسكريّ ومساعدته على القيام بنشاطات مدنيّة ويوميّة وعاديّة، إلى جانب تعلّقهم بالنظام الكولونياليّ: «بمساعدة الصلات الشخصيّة بين الحاكم العسكريّ والمقيم العربيّ، سيحصل الأخير على ما يبتغيه لتوفير احتياجاته الاقتصاديّة. وسواءً أكان بحاجة إلى البذور أو السماد الكيماويّ أو القرض الماليّ، فإنّه سيتوجّه شخصيًّا إلى الحاكم أو إلى ممثّله، وسيوضح له ما احتياجاته. وبحكم مكانته المدنيّة والعسكريّة على حدّ سواء، سيتّصل الحاكم العسكريّ بالمديريّة الحكوميّة الملائمة وسيعطي ردّه للمتوجّه» (بَمَحنيه ٣٠ {٢٨}، ١٣، ٢٠/ ٣/ ١٩٥٢).

---

١١٣ بَمَحنيه ٣٠ (٢٨)، ٢٠/ ٣/ ١٩٥٢، ١٣-١٥.

١١٤ يُنظر أيضًا إلى كوهِن ٢٠٠٦، ٩٥.

كان بينو روتنبيرچ هو من التقط الصور في التقرير، والكلام التوضيحيّ الذي رافق هذه الصور يسعى هو أيضًا لوصف الحكم العسكريّ بكلمات إيجابيّة. فعلى سبيل المثال: «سكّان قرية باقة الغربيّة مؤيّدون جدًا لممثل الحاكم العسكريّ في المنطقة» (المصدر السابق). وهي تصف أيضًا «التحسُّن» في حياة الفلسطينيّين في أعقاب الحكم العسكريّ. وقد أرفقت إحدى الصور بهذا النصّ التوضيحيّ: «السيد صبحي حسن صلاح {...} يعتقد أنّ تقدّمًا كبيرًا طرأ في أيام الحكم العسكريّ على مجال التربية والتعليم: توسيع وتنويع المناهج الدراسيّة وزيادة عدد الطلاب بضعفيْن أو ثلاثة أضعاف» (المصدر السابق، ١٤؛ التصويرة رقم ٣٨).[١١٥]

ز. الغنائم: أرشيفات، مجموعات صور وتصويرات لفلسطينيّين وعن فلسطينيّين، غَنَمتها جهات عسكريّة بشكل منظّم حتى سنوات الخمسين

على مرّ القرن العشرين، وحتى يومنا هذا، غُنمت وتُغنم أرشيفات ومجموعات وموادّ/ تصاوير تاريخيّة وثقافيّة، من بينها أرشيفات بصريّة لفلسطينيّين، وذلك بيد جهات عسكريّة، وبشكل منظّم ومُدبَّر. هذه الأرشيفات/ التصاوير موجودة في الأرشيفات العسكريّة، إلّا أنّ التقييدات لم تُرفع إلّا عن بعضها القليل وفُتحت لمعاينة الجمهور، ونحن لا نعرف إلّا النزر اليسير عن ملابسات أخذها. فأرشيف الجيش الإسرائيليّ المسؤول عن مجمل الأرشيفات العسكريّة، لا ينشر - كما تقدّم - أيّ أرشيفات/ موادّ فلسطينيّة غُنمت وهي خاضعة لسيطرته، ولم أحصل على أيّ ردّ بخصوص كلّ

---

١١٥ يُنظر أيضًا إلى التمثيل المشابه في كتب التدريس الإسرائيليّة (Peled-Elhanan 2013).

٣٨

في المعسكر ٣٠، ٢٠/ ٣/ ١٩٥٢ ص. ١٤

«السيّد صبحي حسن صلاح [...] يعتقد أنّه في أيّام الحكم العسكريّ حصل تقدّم كبير في حقل التعليم: تمّ توسيع منهاج التدريس وتنويعه، كما تضاعف عدد الطلّاب ثلاث مرّات. في الصورة [...] السيّدة موزلي، مدرّسة يهودية قادمة من العراق، تدير درسًا في معرفة الطبيعة»

מנחל בית־חספר בבקה, מר סובחי חסאן סלאח, הנראה בתצלום למעלה בביתו, בחברתו של אחד מנכבדי הכפר, סבור, כי בימי הממשל הצבאי חלה התקדמות רבה בשטח החינוך: תוכנית הלימודים הורחבה וגוונה ומספר התלמידים הוכפל פי שלושה. — בתצלום למטה: הגברת מוזלי, מורה יהודיה יוצאת עיראק, מנהלת שיעור בידיעת הטבע.

أسئلتي وتوجّهاتي الكثيرة. هذا ناهيك عن أنّ ملابسات عمليات الغَنْم ظلّت في الغالب مجهولة، وما تزال هذه المعلومات مغلقة أمام الجمهور والباحثين. ونتيجة لحقيقة أنّ الأرشيف العسكريّ لا يهتمّ بإجراء الأبحاث بشأن الجهة الفلسطينيّة التي أُخذت منها المعلومات/ الأرشيف/ التصاوير، وجوهرها ومضامينها، أو يمحو هويتها، كما سأُبيّن لاحقًا في حالة يوسف زعرور أو الأفلام السينمائيّة التي غُنمت من بيروت، فإنّنا نفتقد في الكثير من الحالات إلى معلومات حول المصدر/ الأرشيف الفلسطينيّ الأصليّ (يُنظر إلى Sela2017). وتوجد في أرشيف الجيش الإسرائيليّ صور فلسطينيّة كثيرة تحت عنوان «مصادر عربيّة»، وليست هناك أيّ معلومات جليّة أخرى بشأنها. ونحن لا نعرف ما إذا كانت هذه المواد قد غُنمت أو نُهبت أو وصلت بطرق أخرى إلى أرشيف الجيش في إسرائيل، وما تزال هذه المعلومات سرّيّة. ونحن نتحدّث هنا، في الغالب، عن خطاب تَبييضيّ («مغسول»)، يتستّر على الغنيمة وعلى النهب ويعرضها بضوء حياديّ كما أوضحت سابقًا. ومن غير الواضح، أيضًا، متى وبأيّ ظروف وملابسات غُنمت المواد من مكتب رشيد الحاج إبراهيم، رئيس اللجنة الوطنيّة في حيفا (التصاوير رقم ١٤ و١٦ و١٩ في الجزء الكَتالوجيّ)، وما هو حجم ونطاق المواد التي أُخذت. وعلى ما يبدو، فإنّ هذه المواد غُنمت في أعقاب المعلومات الجمّة التي تراكمت في مكاتب اللجنة، والاهتمام الاستخباراتيّ بها. الصور موجودة في أرشيف الجيش الإسرائيليّ في ملف عرب أرض إسرائيل قبل ١٩٤٨، وهي تحوي أساسًا صورًا من أجل الدعاية الترويجيّة الفلسطينيّة والعلاقات العامّة: لقاءات مع ممثلي جمهور فلسطينيّين، أحداث، مسيرات،

تنظّمات، زيارة المفتي إلى منظمة النجادة[١١٦] في منطقة الجليل، وصور إضافيّة لمنظمة النجادة. ولم أنجح بالعثور على الجنود الذين غنموا الأرشيف، ولذلك فإنّ المعلومات المتعلّقة بتسلسل أنساب الجنود في هذه الحالة كانت قليلة.

توجد في أرشيف الجيش الإسرائيليّ صور إضافيّة تصف «عرب أرض إسرائيل حتى ١٩٤٨»: معارك في منطقة القدس قبل وأثناء حرب ١٩٤٨ (مثل التصويرتيْن رقم ٥٥ و٥٦ في الجزء الكَتالوچيّ)، والمقاومة الفلسطينيّة من سنوات الثلاثين، والحياة الفلسطينيّة قبل حرب ١٩٤٨- اجتماع في يافا، مسابقات رياضيّة، مسيرة شبيبة (التصويرة رقم ١٥ في الجزء الكَتالوچيّ)، صور بورتريه لشخصيّات فلسطينيّة وغيرها. ومن الجائز القول إنّ هذه أيضًا أُخذت من مصادر فلسطينيّة، وهي مصنّفة تحت عنوان يبدو حياديًا للوهلة الأولى.

في أرشيف الهَـچَناه كتيّب لثيودور صروف (Sarrouf)[١١٧] صدر بطبعة خاصّة في يافا في كانون الثاني ١٩٣٤، وهو يصف بالعربيّة والإنجليزيّة وبمعيّة الصور، المقاومة الفلسطينيّة في مدن كثيرة عام ١٩٣٣. وقد جمع صروف صورًا من مصوّرين مهنيّين وهُواة، تصف المظاهرات التي جرت في ١٣ و٢٧ تشرين الأول ١٩٣٣ في يافا،[١١٨]

---

١١٦ منظمة النجادة هي منظمة شبه عسكريّة فلسطينيّة تأسست في أواخر ١٩٤٥ في يافا كمنظمة شبيبة، وكانت شبه عسكريّة. وبعد اعتراف الحكومة الانتدابيّة بالمنظمة، وسّعت الأخيرة من نشاطاتها ووصل تعداد أعضائها إلى عدّة آلاف في فروع مختلفة في أرجاء البلاد. ونجح تنظيم الهَـچَناه في التغلغل إلى داخل المنظمة، وبذلك جمع عنها الأخبار المفصّلة (چيلبر ١٩٩٢، ٦٦٥).

١١٧ ثيودور صروف ١٩٠٧-١٩٧٧، عاش في يافا ومات في بيروت.

١١٨ يُنظر أيضًا إلى جريدة فلسطين (١٢)، تشرين الثاني ١٩٣٣، التي استعانت بالصور لوصف الاضرابات في يافا.

والقدس ومدن أخرى مثل حيفا. وهو يقول إنّ الكتيّب صدر من أجل تلبية الفضول الجماهيري لمثل هذا النوع من الصور. وقد نُشر الكتيّب بالعربيّة والإنجليزيّة لأغراض الدعاية الترويجيّة، ومن أجل أن «يعرفوا من هو المُحقّ» (المصدر السابق). وتصف التصاوير التي اختيرت في هذا الكتيّب الدعائيّ (التصويرة رقم ٣٩) - وبعضها فوتومونتاج- والنصوص المرافقة لها، الرواية الفلسطينيّة كما لم تُنشر من قبل إلّا نادرًا. ونحن لا نعرف كيف وصل هذا الكتيّب إلى الأرشيف. هذا الكتيّب خاصّ جدًا إذ أنّه من أوائل المنشورات -على حدّ علمنا- التي تظهر فيها المقاومة الفلسطينيّة المصوّرة عبر المنظور الفلسطينيّ.

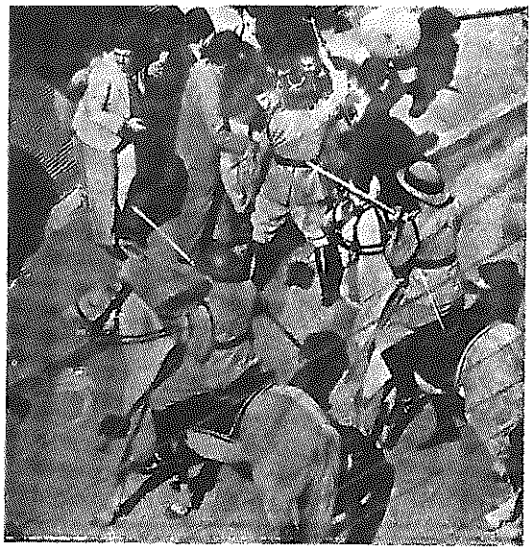

احد رجال البوليس رافعاً هراوته ليضرب بها والى جانبه عطوفة الرئيس الجليل محيط به رجال اللجنة التنفيذية. يافا ٢٧ — ١٠ — ٣٣

One of the Policemen lifting up his baton to beat therewith; beside, His Excellency M. Kazim Pasha surrounded by members of the Executive Committe. Jaffa, 27—10—33

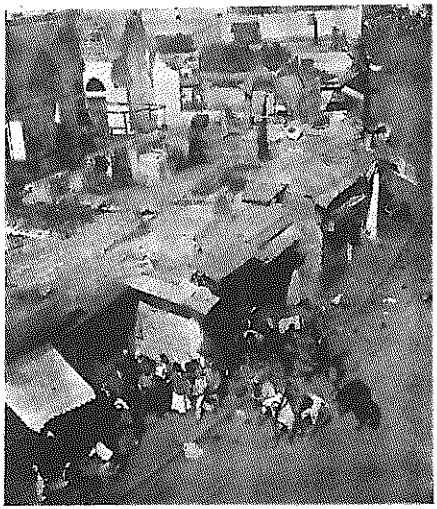

منظر آخر من هجوم البوليس السواري على الاهالي وقد ظهر في الصورة بعض الجرحى على الارض. يافا ٢٧ — ١٠ — ٣٣

View of the mounted—Police in their charge against the natives. Some of the wounded are to be seen thrown down. Jaffa, 27—10—33